

د. عبد الحميد حاسم البلاي

المبادرة للتدبر

نظرات تربوية في كتاب الله

الجزء الأول

هذا الكتاب

في اللغة جلا الحقيقة : كشفها ووضحها، وكتاب الله المعجز ، لا تنقضي عجائبه ، والمتأمل فيه يعثر على الكثير من الدرر التي لم يعثر عليها من سبقه في العصور السابقة ، وهذا من اعجاز القرآن الكريم ، فهو الكتاب الصالح لكل زمان ومكان ، وقضايا الناس وأحداث العالم تتغير وتتبدل مع مر الزمان ، ولكن القرآن يبقى راسخاً لا يتغير بل يتلاءم مع كل متغيرات الحياة .

وهذا الكتاب ما هو إلا محاولات للكشف في آفاق معاني القرآن ، وتوضيحها لتكون أقرب بالفهم لمن يعيش في هذا الزمان ، فلكل زمان دولة ورجال ، وما كان يفهمه من عاشوا في عصر الإمام ابن كثير ، والإمام الطبري والقرطبي وغيرهم من أساطين علم التفسير لا يفهمه الكثير ممن يعيشون في هذا الزمان . لا أدعي بل لا أملك أدوات المفسر حتى أسميه تفسيراً ، بل أسميته (ابتدار التدبر) والذي يحمل معانٍ عظيمة ، منها المسارعة والمسابقة والمعالجة ، ذلك لأن عمر الإنسان محدود وإن من أجل نعم الله علينا هذا القرآن العظيم ، فالمسارعة لفهم معانيه ، والغوص في أعماقه ، من أعظم لذائذ الدنيا ، فلا ينقضي العمر قبل أن تذوق أجمل ما فيها . وكان عملي في هذا الكتاب هو التركيز على المعاني ، وكشف بعض الدرر من آية الى آية ، مراعيًا أقوال علماء السلف ، وتفسير علماؤنا الأجلاء في الماضي والحاضر ، وبما لا يخالف قواعد الشرع ومبادئه ، فإن أصبت فمن الله وتوفيقه وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان ، سائلاً المولى أن يكون كل حرف في هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم ، وسبباً في أحياء القلوب وثباتها وزيادة إيمانها ، وجلاءً للكثير مما كان غامضاً على الكثير من هذا الجيل الذي نعيش فيه . وجعلت عنواناً لكل فقرة حتى تسهل الاستفادة منه ، وقد تكون الآية الواحدة فيها الكثير من الفقرات ، والتي تعتبر تجليات لها

المؤلف

المبادأة للتدبر

نظرات تربوية في كتاب الله

الجزء الأول

د. عبد الحميد حباسم البلاي

المبادرة للتدبر

نظرات تربوية في كتاب الله

الجزء الأول



مقدمة

في اللغة جلا الحقيقة: كشفها ووضحها، وكتاب الله المعجز، لا تنقضي عجائبه، والمتأمل فيه يعثر على الكثير من الدرر التي لم يعثر عليها من سبقه في العصور السابقة، وهذا من اعجاز القرآن الكريم، فهو الكتاب الصالح لكل زمان ومكان، وقضايا الناس وأحداث العالم تتغير وتبدل مع مر الزمان، ولكن القرآن يبقى راسخاً لا يتغير بل يتلاءم مع كل متغيرات الحياة.

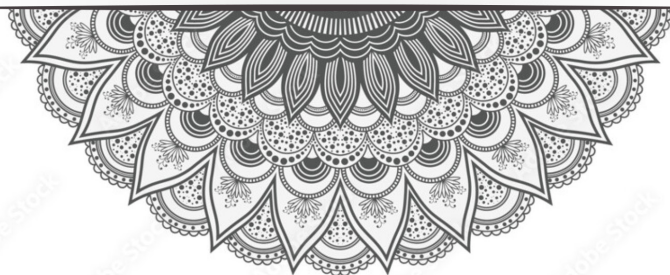
وهذا الكتاب ما هو إلا محاولات للكشف في آفاق معاني القرآن، وتوضيحها لتكون أقرب بالفهم لمن يعيش في هذا الزمان، فلكل زمان دولة ورجال، وما كان يفهمه من عاشوا في عصر الإمام ابن كثير، والإمام الطبري والقرطبي وغيرهم من أساطين علم التفسير لا يفهمه الكثير ممن يعيشون في هذا الزمان. لا أدعي بل لا أملك أدوات المفسر حتى أسميه تفسيراً، بل أسميته (المبادرة للتدبر) والذي يحمل معاني عظيمة، منها المسارعة والمسابقة والمعالجة، ذلك لأن عمر الإنسان محدود وإن من أجل نعم الله علينا هذا القرآن العظيم، فالمسارعة لفهم معانيه، والغوص في أعماقه، من أعظم لذائد الدنيا، فلا ينبغي أن ينقضي العمر قبل أن تذوق أجمل ما فيه. وكان عملي في هذا الكتاب هو التركيز على المعان، وكشف بعض الدرر من آية الى آية، مراعيًا أقوال علماء السلف، وتفسير علماءنا الأجلاء في الماضي والحاضر، وبما لا يخالف قواعد الشرع ومبادئه، فإن أصبت فمن الله

وتوفيقه و إن أخطأت فمن نفسي و الشيطان، سائلاً المولى أن يكون كل حرف في هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً في أحياء القلوب و ثباتها وزيادة ايمانها، وجلاءً للكثير مما كان غامضاً على الكثير من هذا الجيل الذي نعيش فيه. وجعلت عنواناً لكل فقرة حتى تسهل الاستفادة منه، وقد تكون الآية الواحدة فيها الكثير من الفقرات، والتي تعتبر تجليات لها.





سُورَةُ الْفَاتِحَةِ



هي أول سورة في القرآن الكريم، وهي أعظم سورة فيه، فقد روى البخاري في صحيحه: عن أبي سعيد بن المَعْلَى رضي الله عنه، قَالَ: «مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أُصَلِّي، فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟ فَقُلْتُ: كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَعْلَمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أُخْرِجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟ فَذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخْرِجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَذَكَرْتُهُ، فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ»^(١).

هذه ثلاثة أسماء لها، وقد ورد في أحاديث أخرى أسماء أخرى مثل: فاتحة الكتاب، وأم القرآن، وأم الكتاب، وسورة الحمد، وغيرها من الأسماء.

التسمية هي اعلان للهوية

التسمية أول آية في القرآن الكريم، وهي إعلان هوية المسلم التي يعتز بها، وهو الطريق الذي اختاره، وهو المنهج الذي يعتز به، وهي الراية التي رفعها، وعاهد الله على الاحتفاظ بها عالية حتى الممات، بينما هناك الكثير من الخلق من يرفع راية مخلوق، أو صنم، أو مبادئ مخالفة.

فيقولون: بسم القومية أو البعث أو العروبة أو بسم طاغية من الطغاة.

(١) رواه البخاري (٤٧٠٣).

التسمية تجرد

فالذي يبدأ بكل عمل بالتسمية فانه يعلن تجرده من حوله وقوته وتمسكه بحول الله وقوته، حيث يتعلم منها ألا يتكل على تخطيطه وذكائه وقوته ومعارفه وماله وقبيلته، بل يتجرد من كل ذلك ويستيقن بأن الله وحده هو المسير للأمر كلها ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٣) (١).

التسميه توفيق ونجاح

فكما جاء في الحديث «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ» (٢)، أي أن الله ينزع منه التوفيق والبركة من كل عمل لا يبدأ فيه بالبسملة وبالتالي فإن الفشل هو نتيجته، بينما الأمر الذي يبدأ فيه باسم الله يحيطه الله بالبركة والتوفيق وتكون نتيجته النجاح.

التسمية تربية للنفس على الربانية

فعندما يذكر العبد في بداية كل أموره ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فانه يكون في ذكر وتعلق دائمين بالله تعالى، مما يجعله دائم المراقبة والحذر والخوف من الوقوع في المخالفة، وحريص على إرضاء الله بالالتزام بالفرائض وإتمامها بالنوافل، ولعمري أن هذه هي أسس الربانية.

الحمد لله من أوائل العبادة

فأول آية بعد التسمية بدأت بالحمد، إشارة إلى أمر عظيم يريد به الله من العباد أن يتذكروه، ليكون رادعا لهم من الهم والحزن والغم والقلق والهلع، لأنه لا يحمد إلا من تذكر النعم الكثيرة، مما يجعله يستحي أن يحزن على نعمة واحدة من بين عشرات النعم التي فقدها.

(١) الطلاق: ٣.

(٢) رواه مسلم ٣٧٣.

الحمد إقرار واعتراف بنعم الله

فلو تعمق العبد بالتفكير أثناء تلاوته ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) لذهب به العقل لتذكر الكثير الكثير من النعم التي يعجز عن إحصائها، مع تذكر جرائمه وتقصيره، فلا يجد أمامه إلا الاعتراف بالنعم، والشعور بالانكسار أمام خالقه.

تمام الاستغفار الاعتراف بالنعم

وكما علمنا رسولنا ﷺ من خلال حديث سيد الاستغفار «وَأَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي»^(٢) فالحمد يسبق الاعتراف بالذنب، لأنه يحفز العبد على الإسراع بالتوبة بعد الشعور بفداحة الذنب أمام سيل النعم.

الحمد يزيد من الرضا والطمأنينة

فعندما يرى العبد الكثير من حوله ممن ابتلاهم الله بأنواع البلاء، ويرى معافاة الله له من جميع هذه الصور من البلاء، يزيد ذلك من رضاه، ويزيد الطمأنينة في نفسه، فيستلذ وهو يقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أول من يستحق الشكر هو الله

فعندما تأتي قضية الحمد في المقدمة بعد التسمية، فالله يريد إيصال رسالة لعباده بانه المستحق الأول للشكر، لأنه المالك و الواهب الحق لكل النعم، لا المخلوق الذي لا يملك في الحقيقة أي شيء، فلا يشكر من لا يملك وينسى المالك الحق.

(١) الفاتحة: ٢.

(٢) رواه البخاري ٦٣٢٣.

الحمد عمل وليس لفظ فحسب

فالله يقول في سورة سبأ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ (١٣) ﴿١﴾ فالتلفظ بالشكر جزء من الشكر، ولكن الأصل بالشكر هو العمل، وكذلك كان رد رسولنا ﷺ على أم المؤمنين عندما اشفت عليه وهي تراه يكثر من قيام الليل وقد غفر الله ذنوبه فسأله «لَمْ تَصْنَعْ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟» قال: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا» (٢).

الإسلام والإيمان والهداية أجل النعم

من خلال استعراضك للنعم التي أفاءها الله عليك، لا تنسى نعمة الإسلام والإيمان والهداية فإنها أعظم النعم، وتخيل لو لم تكن مسلماً فماذا عساه أن ينفعك كنوز قارون وأبهة الأباطرة والملوك؟؟؟

ليست النعم فقط زينة الدنيا

غالب الناس يقصرون فهمهم للنعم في الإطار الدنيوي «المال و المنصب والشهوة و الدواب والقصور والصحة والولد والزوجة و ما شابهها» بينما ينسون اعظم النعم على الإطلاق وهي نعمة الإسلام والإيمان والهداية والتوفيق للطاعات والثبات وهداية الأبناء، وتذكرك لهذا اللون من النعم يشعرك بلذة لا تدانيها لذة وانت تتلو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١) سبأ: ١٣.

(٢) رواه البخاري ٤٨٣٧.

تلك الدنيا بأسرها

روى ابن ماجه قول النبي ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قَوْتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»^(١).

وفي الحديث ذكر لثلاث نعم فقط من ملكها فكأنها جمعت له الدنيا بأسرها فكيف بمن يملك أضعافها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

اسمان مشتقان من الرحمة

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) اسمان مشتقان من الرحمة، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم كما قال الماوردي، واختلف المفسرون بالرحمتين على أقوال: منها قولهم: بأن الرحمن مشتق من رحمة الله لجميع خلقه، والرحيم مشتق من رحمة الله لأهل طاعته.

أرحم من الوالدة

إن أعظم صور الرحمة التي نراها في هذه الدنيا، سواء من الأم بولدها، أو ما بين البشر أو الحيوان لا تساوي ذرة من رحمة الله التي وسعت السموات والأرض، فكلما ضاق بك الكرب فتذكر ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٣) فإنه أرحم من أمك بك، و أرحم بك من نفسك.

(١) ابن ماجه ٤١٤١ و حسنه الألباني صحيح ابن ماجه ٣٣٥٧.

(٢) الفاتحة: ٣.

(٣) الفاتحة: ٣.

يا صاحب الهم ارفع رأسك

أيها الغارق في الهم والغم والحزن ارفع رأسك وارفع يديك إلى السماء واسأل ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾^(١) ولا تظن أنه غافلاً عنك، وغافلاً عن آلامك ومصائبك، ولكنه يؤخر الفرج رحمة بك، ليزداد أجرك، ويتمحص إيمانك ولتنتبه لأخطائك، ولترجع إلى ربك.

رحمته سبقت غضبه

عندما نقرأ ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾^(٢) نتذكر أن رحمته سبقت غضبه، وأن رحمته وسعت السموات والأرض، وإن من رحمته أنه يغفر للمسيء والعاصي إذا رجع إليه، ومن رحمته أن يبدل سيئات العاصين إلى حسنات.

الراحمون يرحمهم الرحمن

عندما نقرأ ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾^(٣) نتذكر بأن الراحمين في الأرض يرحمهم الرحمن، بينما قساة القلوب يبغضهم، وأن الرحمة ادخلت بغيا من بني إسرائيل الجنة، وحرمت امرأة من دخولها بسبب عدم رحمتها لهرة.

من صور الرحمة

عندما نقرأ ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾^(٤) نتذكر بأن صور الرحمة كثيرة، ومن بينها تقبيل الأطفال وضمهم وشمهم، ونتذكر قول الرسول ﷺ لذلك الرجل الذي لم يقبل أبناءه «وما أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك»^(٥).

(١) الفاتحة: ٣.

(٢) الفاتحة: ٣.

(٣) الفاتحة: ٣.

(٤) الفاتحة: ٣.

(٥) رواه ابن حبان، وصححه الألباني (صحيح ابن حبان ٥٥٩٥) ورواه البخاري بلفظ آخر ٥٩٩٨.

أولى الناس بالرحمة

إن أولى الناس بالرحمة الوالدين، لذا أمر تعالى الأبناء بالدعاء لهما ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤) ثم الزوجة والأبناء والأقرباء والفقراء والضعفاء، نتذكر كل ذلك عند قراءتنا ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢) (١).

أنزل رحمة واحدة

عندما نقرأ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢) نتذكر بأن الله تعالى أرسل إلى الأرض رحمة واحدة يتعاطف بها البشر على البشر والوحش على أبنائها، بينما أبقى تسع وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة، فما أعظمه من (رحمن رحيم) وما أشد رحمته بعباده.

يوم الدين من أسماء القيامة

﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٤) (٣) أحد أسماء القيامة، والتي منها (اليوم الآخر، يوم البعث، يوم الخروج، القارعة، يوم الفصل، يوم الدين، الصاخة، الطامة، يوم الخلود) وغيرها من الأسماء، وأنت تقرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤) (٤) تستشعر عظمة ذلك اليوم الذي لا يتحكم فيه سوى الله.

(١) الفاتحة: ٣.

(٢) الفاتحة: ٣.

(٣) الفاتحة: ٤.

(٤) الفاتحة: ٣.

مالك يوم الدين

قال الإمام الضحاك عن ابن عباس: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١) يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا. قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه^(٢). فمن أراد النجاة من الإدانة أمام كل الخلق فعليه بالمسارعة إلى التوبة.

القيامة يوم القصاص

دع الظالمين يظلمون كيفما يشاءون فإن لم ينتقم منهم في الدنيا فحتماً سيكون يوم القصاص موعدهم يوم القيامة، لينتقم الجبار منهم في ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٣) ذلك اليوم الذي يأخذ كل ذي حق حقه، فهو المالك لذلك اليوم العظيم ولا شريك له.

تساقط موازين الأرض

عندما يقرأ المسلم ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ عليه أن يتذكر ذلك اليوم الذي تساقط فيه موازين الأرض (المال والولد والمنصب والأصل والشهرة والعشيرة والعدة والعتاد) ولا يبقى ألا ما قدمت خالصاً صحيحاً لله.

سارع بإرجاع الحقوق

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تذكرنا بالقصاص، فإن كنت ظالماً لأحد كائناً من كان، فسارع بإرجاع الحق له ما دمت حياً، وتحلل منه قبل أن يأخذ حقه منك في ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٤) يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

(١) الفاتحة: ٣.

(٢) ابن كثير/ إسماعيل/ تفسير القرآن العظيم/ القاهرة/ دار الحديث ٢٠٠٢-١/ ٣٥.

فرصتك الوحيدة

عندما تقرا ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تذكر أن الدنيا فرصتك الوحيدة للنجاة من النار يوم القيامة ونيل الدرجات في الجنة، قبل أن يفجأك الموت وتنقطع الفرص، ولا يبقى أمامك سوى ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾.

الدنيا دار سفر

وأنت تتلو ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تذكر أنك ما زلت حياً في هذه الدار، التي جعلها الله مزرعة للآخرة، فلا تلهو بأنوارها كالأطفال وزينتها وتنسى أنها معبر ودار سفر، وليس دار إقامة، فانشغل بالعمل والزرع فيها، كي تحصد الثمار في ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾.

يوم الانتقام من الجبابرة

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم الانتقام من الجبابرة الذين نازعوا الله ملكه، وظلموا الخلائق، وعاثوا في الأرض فساداً، واستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، يحشرهم الله كالذر تطؤه الأقدام، فتلذذ أيها المظلوم عند قراءتك ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

جزاء الظالمين

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ هو يوم الجزاء للظالمين ويوم الجائزة لأصحاب الدين، الذين أدركوا الهدف من الخلق، فأفنوا حياتهم خدمة لربهم، فنالوا جنات عرضها السموات والأرض.

الباحثون عن النور

تذكر وأنت تقرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١) أن العصاة تحيط بهم الظلمة يوم الحشر فينادون الصالحين الذين يحيط بهم النور من كل مكان ﴿أَنْظُرُونَا نَقْنِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾^(٢). فيردون عليهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾^(٣). أي ارجعوا إلى الدنيا لو أنكم تتمكنون ولكن هيهات.

الحياة الحقيقية

في ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ يدرك من تنكب الطريق بأن الحياة الحقيقية هي الآخرة، فيندم على عدم الاستعداد والعمل لها فيقول نادماً ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾^(٤) وأنت تقرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تذكر هذه المواقف والوقفات.

البحث عن أصحاب الحق

وأنت تقرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تذكر أنه في ذلك اليوم يتلفت أصحاب الباطل من الطغاة ومن تبعهم يبحثون عمن كانوا يستهزئون بهم من الصالحين، ويتهمونهم بما ليس فيهم و يضطهدونهم ويظلمونهم فيقولون ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾^(٥) اتَّخَذْنَاهُمْ سَخَرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ^(٦) ولا يدرون بأن الذين كانوا يستهزئون بهم في جنات النعيم.

(١) الفاتحة: ٣.

(٢) الحديد: ١٣.

(٣) الحديد: ١٣.

(٤) الفجر: ٢٤.

(٥) ص: ٦٢ - ٦٣.

يوم توزيع الكتب

وَأَنْتَ تَقْرَأُ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تَذَكَّرُ أَنْ قَوْمًا مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانُوا يَسْتَخْفُونَ بِالْمَعَاصِي، وَيَنْسَوْنَ أَنَّ كُلَّ ذَرَّةٍ تَدُونُ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ، عِنْدَمَا تُوزَعُ عَلَيْهِمْ كُتُبُهُمْ يَقُولُونَ مِنْدَهْشِينَ ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (٤٩).

تغير ألوان الوجوه

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ يَرَى الْإِنْسَانُ مَا لَمْ يَرِهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَهْوَالُ لَمْ يَعْهَدَهَا، وَمَا يَرَاهُ تَغْيِيرُ الْوَانِ الْوُجُوهُ كُلِّ حَسَبِ عَمَلِهِ، فَالْكَفَّارُ وَالْعَصَاةُ تَسْوَدُ وَجُوهَهُمْ وَتَزْرُقُ، وَالْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ تَبْيِضُ وَجُوهَهُمْ وَتَتَلَأَلَأَ نُورًا، يَتَذَكَّرُ الْمُسْلِمُ كُلُّ هَذِهِ الْمُنَاطَرِ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

حقيقة عمر الدنيا

فِي ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ تَتَصَاغَرُ الدُّنْيَا عِنْدَ عِبِيدِ الدُّنْيَا الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمُلْذَاتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَعِنْدَ سُؤَالِهِمْ عَنْ مَدَّةِ لَبْثِهِمْ يَقُولُونَ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (٢) وَيَقُولُونَ ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ (٤٦) (٣) يَتَذَكَّرُ قَارِئُ الْفَاتِحَةِ هَذِهِ الْمُنَاطَرِ وَهُوَ يَتْلُو ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

يا ليتني كنت تراباً

وَأَنْتَ تَقْرَأُ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تَذَكَّرُ عِنْدَمَا يَرَى الْكَفَّارُ وَأَصْحَابُ الْجَرَائِمِ الْكُبْرَى مِنَ الْعَصَاةِ تَحُولُ الْحَيَوَانَاتُ إِلَى تَرَابٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَتَمَنُّونَ لَوْ كَانَ مُصِيرُهُمْ مِثْلَ الْحَيَوَانَاتِ وَلَا يَحَاسِبُونَ وَيُعَذِّبُونَ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٤٠) (٤).

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) الكهف: ١٩.

(٣) النازعات: ٤٦.

(٤) النبأ: ٤٠.

أمنية الموت

وأنت تقرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تذكر حال أرباب المال الكبير والثروات العظيمة والسلطان من الطغاة، الذين كانوا يستغلون ما لهم وسلطانهم في حرب الله ودينه والصالحين، عندما يَرُونَ العذاب يقول أحدهم ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ (٢٩) ﴿(١)﴾.

حقيقة نعيم الدنيا

تذكر وأنت تقرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ انعم رجل في الدنيا من أهل النار، أكثرهم مالاً وقصوراً وسلطاناً وعدة وعتاداً وخداماً، يغمس في النار غمسةً واحدة فتتسبب كل ذلك النعيم الممتد، وتجعله يقسم «والله ما مرَّ بي نعيم قطُّ» (٢) لهول ما رأى من العذاب.

حقيقة بلاء الدنيا

تذكر وأنت تقرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أبأس رجل في الدنيا من أهل الجنة، ربما كان أكثرهم فقراً وبلاءً ومرضاً وأكثرهم مظلمة، يغمس في الجنة غمسةً تنسيه كل عذابات الدنيا الممتدة، فيقسم «والله ما مرَّ بي بُؤْس قطُّ» (٣).

معنى العبادة

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (٤) يقول الإمام ابن كثير «العبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبد، وبغير معبد، أي مذلل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف» (٥).

(١) الحاقة: ٢٧ - ٢٩.

(٢) رواه مسلم ٢٨٠٧ وبدايته «يُؤْتَىٰ بِأَنعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

(٣) المرجع السابق.

(٤) الفاتحة: ٥.

(٥) تفسير ابن كثير/ مرجع سابق ٣٦/١.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تعني اننا نخصك انت وحدك في العبادة ولا نشرك معك احد.

اقصى الخضوع

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يقول الامام الشوكاني في تفسيره «والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف»^(١) وهذا لا يكون الا لله، فالمرء اذا خاف من آخر بغضه، بخلاف خالقه كلما زاد خوفه منه. زادت محبته له.

توحيد الخوف

من أروع معاني العبادة لله، الخوف من الله مع محبته، فالفاتحة تعلمنا توحيد الخوف من الله وحده، لأنه هو وحده الضار والنافع، وهو وحده صاحب الحول والقوة، وجميع المخلوقين مهما بلغوا من القوة والصولة والجولة والمال والعدة والعتاد فانهم لا يملكون أن يضرُوا أحداً أو ينفعوه الا بأمر من الله.

الخوف الباطل

إن كل خوف من مخلوق خوف باطل، وكلما زاد الإيمان زاد توحيد الخوف من الله وحده وقل الخوف من غير الله.

فالهلوع والفرع والرعب والاضطراب من مخلوق احد دلائل ضعف الإيمان بالله.

الله المعبود بحق

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فكل معبود سوى الله باطل، ولا معبود بحق سوى الله، وهذا يعني تبعاً لمعنى العبودية: ان كل تذلل وخضوع واتباع لغير الله وما والاها فهو باطل.

(١) الشوكاني محمد / فتح القدير / المنصورة / دار الوفاء ١٩٩٧ / ١ - ٨٩.

التذلل لله عزة

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نتعلم منها ان الانسان كلما زاد من تذله لله زاده الله عزاً، وعلى النقيض كلما زاد تذله للمخلوق زاد مهانة وذللاً، فارفع هيئات التذلل هو السجود، وهو اقرب ما يكون العبد فيه لله.

الاسلام دين الحق فقط

نتعلم من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بأن كل دين غير الاسلام باطل ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١) لأنه الوحيد الخالي من الشرك، وهو الذي ختم الله به الوحي، وقال ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢) ولا يدخل الجنة الا موحد قد افرد العبادة لله وحده، ولم يشرك معه احد.

اسوء صفات البشر

التذلل للمخلوق اسوء صفات البشر وأرذلها، وأدنى طبقات الانحطاط البشري، بينما التذلل لله أرفع صفات البشر وأعلاها، وقمة الارتقاء البشري. لذلك نجد أن أعظم الناس، وهم الرسل، هم أكثر الناس تذلاً لله، وأحققر البشر هم أكثر الناس اتباعاً وتذلاً للطغاة الظالمين والمجرمين.

يقول الراغب الأصفهاني: «العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى»^(٣) اللهم اجعلنا ممن يبلغون في عبادتهم غاية التذلل لله تعالى.

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) المائدة: ٣

(٣) الأصفهاني الراغب/ مفردات ألفاظ القرآن/ دمشق/ دار القلم ١٩٩٧/ ص ٥٤٢.

أنواع العبيد

أنواع العبيد: كما ذكرها الراغب الأصفهاني^(١) أربعة أنواع: وهم باختصار

١- عبد بحكم الشرع وهو الانسان.

٢- عبد بالإيجاد وذلك ليس الا الله.

٣- عبد بالعبادة والخدمة وهو العبد لله والمخلص في عبادته.

٤- وعبد للدنيا وأعراضها، وهو المعتكف على خدمتها، وإياه قصد النبي ﷺ «تعس عبد الدرهم»^(٢).

معنى الاستعانة

يقول الامام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، «على طاعتك وعلى أمورنا كلها. وقال قتادة: إياك نعبد وإياك نستعين يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أمركم»^(٣).

العون الرباني

هذه العبادة التي كلفنا الله بها لا يمكن القيام بها من غير العون الرباني، فالله هو المعين والموفق والمسهل لقيام العبد لهذه المهمة العظيمة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، لذلك جاءت بعد ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

(١) المرجع السابق.

(٢) رواه البخاري ٢٨٨٧- حيث يبدأ الحديث «تعس عبد الدينار».

(٣) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ٣٦/١.

أنواع الاستعانة

الاستعانة التي نطلبها من الرب قسمين:

- ١ - استعانة على العبادة
 - ٢ - الاستعانة على الأمور الدنيوية
- والاستعانة على العبادة تنقسم إلى أقسام:
- ١ - على الفرائض.
 - ٢ - على النوافل.
 - ٣ - الاستعانة على النفس الإمارة بالسوء.
 - ٤ - الاستعانة على وساوس الشيطان.
 - ٥ - الاستعانة على الثبات والاستقامة.

أنواع الاستعانة الدنيوية

الاستعانة على الأمور الدنيوية تنقسم إلى أقسام:

- ١ - الاستعانة على الاحسان في عملي.
- ٢ - الاستعانة على قضاء حوائجي.
- ٣ - الاستعانة على الصبر على البلاء.
- ٤ - الاستعانة على الأعداء.

آداب الاستعانة

- ١ - أن تستيقن بأن الله قادر على العون.
- ٢ - أن تتذلل لله وانت تطلب العون.
- ٣ - ألا تظن أن غير الله قادر على عونك إلا بإذنه.

استشعر ضعفك

ولما تقرأ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) استشعر ضعفك وقلة حيلتك وعجز المخلوقين عن اعانتك، وحاجتك القصوى للعون من رب العالمين للتخلص مما انت فيه من الضيق وتراكم المهموم.

تربية سيدنا يوسف على الاستعانة

لقد ربى الله تعالى نبيه يوسف عليه السلام تربية ربانية عندما أنساه الشيطان الاستعانة بربه واستعان ببشر ظن أن الفرج بيديه فقال للسجين ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(٢) أي الملك فعاقبه الله ﴿فَلَبِثْتُ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾^(٣) هذا شأنه مع الرسل فكيف بمن دونهم؟ وهنا تأتي اللذة وانت تقرأ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٤).

وحده القادر على رفع البلاء

على المؤمن أن يتذكر عندما يبتلى ببلاء، أن الله وحده هو القادر على رفعه وتفريجه، فقبل أن يتجه إلى المخلوق يجب عليه أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله هو الذي يزيل كربته، وإنما سخر ذلك المخلوق ليكون سبباً من أسباب التفريج.

مناجاة الاستعانة

اللهم أني أستعين بك على نفسي التي تأمرني بالسوء، وأستعين بك على وساوس ابليس ومداخله، وأستعين بك من شر كل مخلوق، وأستعين بك من الالتفات الى ما يشغلني عنك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) يوسف: ٤٢.

(٣) يوسف: ٤٢.

(٤) الفاتحة: ٥.

قوة الله وقوى الأرض

عندما تقرأ ﴿وَأَيَّاكَ دَسْتَعِينُ﴾ تذكّر أن قوى الأرض كلها تتضاءل أمام قوة الله تعالى، وانه لا حول ولا قوة لمخلوق إلا بالله، وإن المخلوقين مهما ملكوا من المال والمنصب والعدة والعتاد والاتباع والصولة والجولة فانهم يبقون مخلوقين ضعافا لا يمتلكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا ضرراً ولا نفعاً.

ثناء يعقبه دعاء

يأتي اعظم الدعاء ومبتغى كل عاقل وحريص ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) بعد مقدمة الثناء والحمد والتذلل والتبرؤ من الخلق، والتعلق بالخالق لتعلمنا قواعد الدعاء المستجاب، والتأدب مع الله عند مخاطبته وطلب المعونة منه.

الهداية مبتغى العقلاء

الهداية مبتغى كل مؤمن وكل إنسان عاقل، لأن عكسها يكون الضلال المؤدي إلى النار، والهداية هي الطريق إلى مرضاة الله والجنة، وتيسير الأمور في الدنيا، والسبيل إلى السعادة في الدارين، وهي الشفاء من العلل المتعددة، لأن راحة النفس وسعادتها لا تكون إلا بالهداية.

الوقاية من شياطين الإنس والجن

طلب الهداية ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو طلب الوقاية من شياطين الإنس والجن، وكل ما ينتج من الضلال من مشكلات اجتماعية وأسرية واقتصادية وأخلاقية، فالهداية عصمة من الزلل بجميع أنواعه، والضلال هو الطريق إلى جميع أنواع الزلل.

أنواع الهداية

الهداية كما يقول علماء العقيدة نوعان: هداية دلالة وهداية توفيق

١ - هداية الدلالة: يشترك فيها البشر مع رب العالمين، وهي إرشاد الناس إلى طريق الحق

٢ - هداية التوفيق: خاصة بالله تعالى، وهي إلقاء الهداية في قلب من يشاء من عباده.

لمن تكون الهداية؟

اقتضت حكمة الله بأن يهدي (هداية التوفيق) من طلب بإرادته الهداية وسلك طريقها ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾^(١) أما من اختار بإرادته طريق الضلال فإن الله يزيده ضلالاً ويحرمه من الهداية ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾^(٢).

طلب الهداية

طلب الهداية ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣) ليس دعاءً فارغ الروح، بل يريد من صاحبه بذل الأسباب لتحقيق الإجابة، تحتاج من صاحبها مجاهدة نفسه وشياطين الإنس والجن في سبيله، لذلك قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٣).

هل نحن صادقون؟

هل نحن صادقون في دعائنا عندما نطلب الهداية من خلال تلاوتنا ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣) أكثر من عشرين مرة في الفرائض والنوافل، لو اننا تفكرنا بما تعنيه هذه الآية لما خالفنا معانيها في واقعنا العملي المليء بمخالفات طريق الهداية التي نطالب الله بها.

(١) محمد: ١٧.

(٢) مريم: ٧٥.

(٣) العنكبوت: ٦٩.

تفكر بمعنى الهداية:

في وصية النبي ﷺ علياً رضي الله عنه بالدعاء «قُلِ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَلِّدْنِي» ثم أوصاه «وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّادِدِ سَدَادَ السَّهْمِ»^(١) فلو أننا تفكرنا بمعنى الهداية لاستحيينا من اقتراف المعاصي.

بذل أسباب الهداية

عندما تقرأ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ تذكر أنك لن تستطيع سلوك طريق الهداية دون بذل أسبابها، ومن أبرز هذه الأسباب:

- ١ - اختيار البيئة الصالحة
- ٢ - اختيار صاحب الصالح
- ٣ - التوبة من المعاصي والندم عليها
- ٤ - الدعاء بالثبات

التماس طريق الهداية

إن أحد الحكم في تكرار تلاوة الفاتحة، وجعلها الشارع ركناً في الصلاة لا تصح غيرها، لتذكرنا بأهم الأصول التي تعيننا على تطبيق الهدف الذي خلقنا من أجله، والذي من أبرزه التماس طريق الهداية، فهو الطريق إلى النجاة، وبذل الغالي والنفيس من أجل الوصول إليه والثبات عليه والموت عليه.

ما هو الصراط المستقيم؟

نقل الإمام ابن كثير قول الإمام القرطبي: «أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على

(١) رواه مسلم ٢٧٢٥.

أن ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط^(٢).

ملخص أقوال المفسرين في معنى الصراط :

١ - كتاب الله. ٢ - المتابعة لله و للرسول. ٣ - الإسلام.

الطبري يشرح هداية الصراط

يقول الإمام الطبري : «والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي - أعني اهدنا الصراط المستقيم - أن يكون معناه به : وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم ؛ لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقد وفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه»^(٣).

أنهما صراطان

عندما نقرأ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٤) نتذكر بأن هناك صراطان، صراط في الدنيا، وهو ما مر معنا من معانيه، وهو الاستقامة على أوامر الله، والإبتعاد عن نواهيه، وهناك صراط في الآخرة، أدق من الشعرة، واحد من السيف، جسر ممدود على نار جهنم، فمن استقام على صراط الدنيا، أقامه الله على صراط الآخرة، وكان من السعداء الذين يتجاوزونه بسرعة البرق أو الريح المرسلة، أو العداء السريع. ومن لم يستقيم على صراط الدنيا، زلت قدمه على الصراط والتهمته ألسنة جهنم.

(١) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ٣٨ / ١.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩.

المغضوب عليهم والضالين

يقول الإمام ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١)»
يعنى: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم،
وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسله، وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجره،
غير صراط المغضوب عليهم، الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا
صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة، لا يبتدون إلى الحق،
وهما طريقتا اليهود والنصارى^(٢). إن المؤمن كلما قرأ هذه الآية، يتذكر أن أعدى أعدائه
هم اليهود والنصارى، ويتذكر ما فعل هؤلاء من الجرائم، وما زالوا للمسلمين في بقاع
العالم الإسلامي، ويتذكر ما قاله الرب: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾^(٣) فيتجدد عنده عقيدة الولاء والبراء.

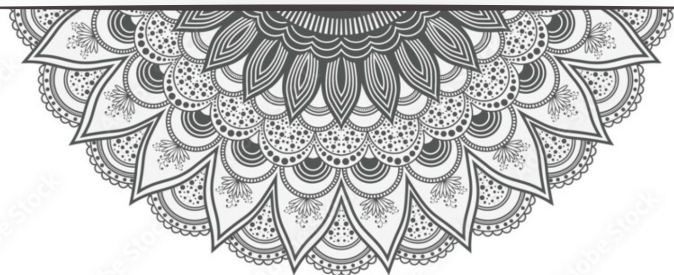
(١) الفاتحة: ٧.

(٢) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ١ / ٤٠.

(٣) المائدة: ٨٢.



سُورَةُ الْبَقَرَةِ



علمتني البقرة

القرآن المعجزة الخالدة

عندما تبدأ قراءة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(١) تذكر أن جميع المعجزات قد توقفت بموت الأنبياء إلا هذا الكتاب (القرآن) باقياً إلى آخر هذا الزمان، ليكون منهجاً للحياة السعيدة، ومنهجاً لمن يريد أن يكون قائداً وناجحاً ومنتجاً وسعيداً، سواءً فرداً أو أمة.

القرآن تكفل الله بحفظه

تذكر وأنت تقرأ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٢) أنه الكتاب الوحيد الذي أنزل من الله ولم يتغير ولم يتبدل، وعجز كل البشر أن يزيّدوا فيه أو ينقصوا، فهو محفوظ من الخالق، وهو كلام الله للناس جميعاً، من عمل به أفلح، ومن أعرض عنه خاب وخسر في الدنيا والآخرة.

القرآن الكتاب الهادي

تذكر وأنت تقرأ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣) إنه لا يوجد كتاب أعلى وأجل وأمتع وأهدى من القرآن، فهو الكتاب الذي جمع بين دفتيه تفاصيل الهدف من الخلق، وطرق الهداية والثبات، وأبرز العوائق والأعداء، فكل من بحث عن السعادة والنجاح في غيره ضل وتاه في أودية الضلال.

(١) البقرة: ٢.

(٢) البقرة: ٢.

معنى التقوى

عندما تقرأ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) لا بد أن تتفكر في معنى «التقوى» تلك الصفة التي جاءت في مقدمة صفات أحباب الله أصحاب المنازل العالية، فالتقوى في اللغة كما قال القرطبي: «وهو الذي يتقي بصلاح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى، مأخوذ من اتقاء المكروه بما يجعله حاجزاً بينك وبينه»^(١).

تعريف الإمام علي

عندما تقرأ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) تذكر تعريف الصحابي الجليل علي للتقوى عندما قال: «التقوى هي:

الخوف من الجليل،

والعمل بالتنزيل،

والقناعة بالقليل،

والاستعداد ليوم الرحيل»^(٢).

صفات المتقين

ما هي صفات المتقين؟

أول الصفات ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (٣) فما هو الغيب؟

الغيب لغة: «الغيب في كلام العرب: كل ما غاب عنك»^(٤).

(١) القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٨٨ / ١ - ١١٣.

(٢) مارديني صلاح الدين / التقوى / المكتب الإسلامي / دمشق ١٩٨٠ - ص ١٦.

(٣) البقرة: ٣.

(٤) القرطبي / الجامع لأحكام القرآن - مرجع سابق ١ / ١١٥.

واصطلاحاً: «كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدي إليه العقول من أشرار الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة»^(١) ولا شك ان هذا من أصعب الأمور على الإنسان، فلا يؤمن به إلا ذو منزلة عالية.

الإيمان بالغيب

لم تأت صفة الإيمان بالغيب في المقدمة من صفات المتقين إلا لأهميتها وضرورتها.
* والمقصود بالإيمان بالغيب: التصديق الجازم بكل المغيبات التي أخبرنا الله ورسوله عنها دون تردد أو شك.

* ويندرج تحته: أركان الإيمان الستة التي، هي «الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبالقضاء خيره وشره».

أهمية الإيمان بالغيب

تنطلق أهمية الإيمان بالغيب أنها تقلل السلوك البشري السلبي، وتحفز المؤمن للقيام بالعمل الإيجابي، وتبرز أجمل ما في الإنسان من صفات، وتضبط السلوك البشري من الانفلات والفوضى والظلم، حتى يمارس الإنسان إنسانيته، ويتميز عن البهيمة.

صفة المتقين الثانية

تأتي الصفة الثانية من صفات المتقين بعد صفة الإيمان بالغيب لتكون الترجمة العملية لذلك الإيمان، وكذلك ترتيبها في أركان الإسلام تأتي مباشرة بعد الركن الأول وهو الشهادة، وهذا يدل على أهميتها الكبرى، فما ينفع إيمان وإسلام من غير صلاة.

(١) المرجع السابق.

يقيمون الصلاة

جاء في ذكر الصفة الثانية من صفات المتقين ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾^(١) ورد لفظ ﴿الصَّلَاةَ﴾ في القرآن الكريم: ٦٣ مرة. منها ٥١ مقترنة بلفظ (القيام) و مشتقاته... ولم يستعمل القرآن كلمة (صلوا) أو (أدوا الصلاة) وإنما كان دائماً الأمر بصيغة (أقيموا الصلاة)! فما هو الفرق بين أداء الصلاة وإقامة الصلاة؟.

الفرق بين الأداء والإقامة

الصفة الثانية من صفات المتقين ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾^(٢) والفرق بين كلمة (ويصلون) و(يؤدون) وبين كلمة (ويقيمون) أن الأداء هو الإتيان بالصلاة كاملة بأركانها وواجباتها وسننها، أما الإقامة فتعني بالإضافة إلى الأداء القيام بحقها كاملة من الطمأنينة والخشوع والتفكير والاندماج الكامل، والانخلاع عن التفكير بأمور الدنيا.

صفة المتقين الثالثة

الصفة الثالثة للمتقين ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٣) أي أنهم ينفقون في سبيل الله كل ما رزقهم «والرزق لا يقتصر على المال» قال الإمام السعدي: «يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب، والماليك ونحو ذلك. والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير».^(٣) ويشمل كل نعمة أنعمها الله على الإنسان كالمال والطعام والجاه والقوة والعلم وغيرها من النعم.

(١) البقرة: ٣

(٢) البقرة ٣

(٣) السعدي عبد الرحمن / تيسير الكريم المنان / جدة / دار المدني ١٩٨٨ ص ٣٠

صفة الإنفاق

وصفة الإنفاق لهذه النعم تعني معان كثيرة: منها:

- ١ - الانتهاء (مضى و نفذ).
- ٢ - الاتلاف (نفقت الدابة).
- ٣ - الفناء (نقصت الدراهم)^(١).

وهذا يعني أنهم ينفقون من غير بخل أو تردد، ومن غير تعلق بتلك النعم، ينفقونها بنفس راضية كريمة.

الرزق كله من الله

هناك إشارة خفية في قوله تعالى وهو يتحدث عن الصفة الثالثة، ألا وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا رَزَقَهُمْ يَفْقُونَ﴾ ^(٢) إشارة أن الرزق كله من الله، وليس للإنسان فيه سوى بذل السبب، حتى لا يخدعه الشيطان بأنه هو الذي صنع ذلك الرزق، كما فعل قارون عندما قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ^(٣) فخسف الله بداره وملكه الأرض.

الإيمان بالرسول

الصفة الرابعة للمتقين الإيمان بجميع الرسل والكتب دون تفريق بين أحد منهم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ^(١)، فالإيمان بهم وحبهم والغضب عند الإساءة اليهم عقيدة، فإذا ما أسى لسيدنا عيسى أو موسى يجب علينا أن نغضب وندفع عنه بكل ما نستطيع، فالقضية ليست عصبية عربية بل هي عقيدة راسخة بالإيمان بهم جميعاً.

(١) الراغب الأصفهاني / مفردات ألفاظ القرآن / دار القلم / بيروت ١٩٧٧ / ص ٨١٩

(٢) القصص: ٧٨

(٣) البقرة: ٤

الإيمان باليوم الآخر

الصفة الخامسة للمتقين ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ^(١) الآخرة تشمل كل ما بعد الموت، حتى الاستقرار الأخير في جنة أو نار، وكل ذلك من الغيب، وبالرغم أنهم لم يروه إلا أن إيمانهم به يصل إلى درجة اليقين، واليقين أعلى درجات الصدق والتصديق، كأنهم رأوه بأعينهم.

اليقين نتيجة التقوى

وبسبب هذا اليقين الذي يتصف به المتقون، فإنهم لا يضجرون إذا ضجر الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ولا يقلقون إذا قلق الناس، لأنهم مستيقنين بأن هناك آخرة سينصفون فيها، ويجزون أعظم الجزاء لصبرهم واحتسابهم، وسيعوضهم الله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر.

لا تنفعهم الموعظة

تذكر وأنت تقرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ^(٢) قول الإمام القرطبي: «فيمن حقت عليه كلمة العذاب، وسبق في علم الله أنه يموت على كفره» ^(٣) فمثل هذه الفئة لا ينفع معها موعظة، ولأنه لم يعينها لرسوله وللمؤمنين، وتركها لعلمه، فيتعين علينا نصح الجميع لعله يكون من غير هذه الفئة.

(١) البقرة: ٤

(٢) البقرة: ٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق ١/ ١٢٩.

سبب عدم الهداية

يذكر الله سبب عدم هدايتهم بقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١) القلب والسمع والبصر هي أدوات الاستقبال، فإذا ختم عليها خالقها، وأغلق تلك المنافذ فكيف سيستفيد مما يبصر ويسمع.

معنى الختم

وأنت تقرأ ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ لا بد أن تتفكر بمعنى الختم، يقول الإمام الطبري: «أخبر ﷺ أَنَّ الذنوب إِذَا تَابَعْتَ عَلَى الْقُلُوبِ أَغْلَقْتُهَا، وَإِذَا أَغْلَقْتُهَا أَتَاهَا حَيْثُ خَتَمَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالطَّبْعُ، فَلَا يَكُونُ لِلْإِيمَانِ إِلَيْهَا مَسْلَكٌ، وَلَا لِلْكَفْرِ مِنْهَا مَخْلَصٌ، فَذَلِكَ هُوَ الْخَتَمُ وَالطَّبْعُ.» (٢).

من علامات الختم

من علامات الختم على هذه الجوارح الثلاثة أنك ترى هذه الفئة من الناس:

- ١ - تضحك في المقابر.
- ٢ - تبغض النصيح.
- ٣ - تكره الناصحين.
- ٤ - لا تتأثر بالمواعظ.
- ٥ - لا تشعر بالفقير والمسكين والمظلوم.
- ٦ - قاسية في تعاملها مع الآخرين.
- ٧ - تبقى على معاصيها ولا تتغير.

(١) البقرة: ٧.

(٢) إين كثير إسماعيل / تفسير القرآن العظيم / مرجع سابق ص ٦٢.

أخطر فئة في المجتمع

تذكر وأنت تقرأ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) ﴿١﴾ هذه الفئة تمثل اخطر فئة في المجتمع الاسلامي، وهي (فئة المنافقين) والتي تظهر الاسلام وتبطن الكفر، وذلك:

١ - للاستفادة المادية.

٢ - للتجسس على المسلمين.

أنواع النفاق

النفاق نوعان:

١ - اعتقادي، وهو ابطان الكفر واطهار الإسلام، وهو مخرج من الملة، وفي الدرك الأسفل من النار.

٢ - عملي: لا يخرج من الملة ولكن يعاقب عليه، ومنه الكذب وإخلاف الوعد والعهد والأمانة، كما جاء في الحديث، والذي ورد في الآية من النوع الأول.

وسيلة الخداع

وسيلة المنافقين للوصول إلى أهدافهم في المجتمع الإسلامي ما ذكره تعالى ﴿يُخٰدِعُونَ﴾ **اللَّهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا** ﴿١﴾ ﴿٢﴾ فهم قد يخدعون المؤمنين بمكرهم، ولكن من المستحيل خداع خالقهم، فهم مكشوفين تماما امامه، لذلك رد عليهم ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١﴾ ﴿٣﴾ ووجب على المسلمين مضاعفة الانتباه.

(١) البقرة: ٨.

(٢) البقرة: ٩.

(٣) البقرة: ٩.

انعدام الإحساس

انعدام الإحساس والشعور من أبرز صفات الغافلين عن سلوك طريق الحق، وليس الأمر متعلق بعدم الإحساس فقط، بل الأمر يتعدى ذلك، بانهم يعتقدون أن الطريق الذي يسلكونه هو الصحيح ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ولم يكتفوا بالصلاح بل ادعوا الإصلاح.

لا يشعرون

هذه الفئة الفاسدة، والمنتكبة للطريق، وتحسب أنها هي التي على الحق، وأصحاب الحق هم:

١ - متخلفون.

٢ - ارهابيون.

٣ - متآمرون.

٤ - رجعيون.

تتكرر في كل زمان ومكان، وتكثر في الزمن الذي لا يحكم فيه الاسلام، يرد الله عليهم

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢).

المنافقون الجدد

من صور خداع المنافقين الفاسدين والمتآمرين على المجتمع الإسلامي، أنهم يتآمرون ويجتمعون بالخفاء مع كبرائهم من واضعي الخطط ضد المجتمع الإسلامي، وإذا اتقوا بالمؤمنين اظهروا لهم الود والدين والولاء ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَٰطِئِثِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ (١٤).

(١) البقرة: ١١.

(٢) البقرة: ١٢.

(٣) البقرة: ١٤.

الهدى والضلال

في هذه الدنيا عقد الله تجارة يباع فيها سلعتين (الهدى والضلال) والغريب في هذه التجارة أو هذا السوق، إن سلعة الهدى بالمجان، ولا توجد آية في القرآن تبين شراء الهدى (اشترى الهدى) لأن الهدى لا يشتري، ولا يكلف الذين يريدونه أي تكلفة مادية، بل هو بالمجان لمن يريده، بينما الضلالة تكلف صاحبها الكثير الكثير.

موقدوا النار

يبين الله حالة المنافقين من خلال مثل موقد النار في سفر الصحراء، بقوله ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَّا يَبْصُرُونَ﴾ (١) ذكر الطبري: «أن ناساً دخلوا في الإسلام مقدم النبي ﷺ المدينة ثم إنهم نافقوا، فكان مثلهم كمثّل رجل في ظلمة فأوقد ناراً فأضاءت ما حوله من قذى أو أذى فأبصره حتى عرف ما يتقي، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره». (٢)

هذا حال المنافق

في ظلام الصحراء عندما توقد النار يبصر المسافرون كل الطرقات والمخاطر، فينتقون أصلحها وأكثرها أمناً، ويجتنبون الطرق الموصلة للهلاك، فإذا انطفأت النار، اظلمت طرقهم فلا يبصرون شيئاً، بل يتوقفون عن المسير خوفاً من الوقوع في المهالك، كذلك هو حال المنافق، فبنفاقه ذهب نور الإيمان وبقي جمر النفاق.

(١) البقرة: ١٧ .

(٢) الطبري محمد بن جرير / تفسير الطبري / دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٩٧ / مجلد ١ / ١٧٦ .

طريق الضلال

هذا هو حال المنافقين وكذلك كل من التزم طريق الحق ثم حاد عنه، فإن الله يظلم طريقه فيتخبط في طرق الضلال، ويزول عنه نور التوفيق والسداد ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٧) وكلمة تهادى في طريق الضلال زاد تخبطه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧). (٢)

عقوبة إيقاف الجوارح

يقول تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُتَىٰ فُهْمٌ لَا يُجِيعُونَ﴾ (١٨) (٣) لقد أقفل الله سمعهم فحرمهم من سماع الحق، وأعمى بصيرتهم فلا يدركون الحق، وأخرس لسانهم فلا ينطقون بالحق، فلا يرجعون أبداً لما كانوا عليه من الحق قبل النفاق، بل يبقون في الظلام حتى تقبض أرواحهم، لأنهم هم الذين اشتروا الضلالة (واختاروها).

الرافضون للحق

وضرب الله مثلاً آخر عن المنافقين وتعاملهم مع الحق ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَفْئَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩) (٤) فالصيب هو القرآن مثله الله كالمطر الذي فيه الخير، ولكن المنافقين يكرهون الخير لأن قلوبهم مليئة بالظلمات.

(١) الزخرف: ٣٧.

(٢) البقرة: ١٧.

(٣) البقرة: ١٨.

(٤) البقرة: ١٩.

تنبيه الرب لهم

جاء في تفسير القرطبي: «مثل الله تعالى القرآن بالصيب لما فيه من الإشكال عليهم، والعمى هو الظلمات، وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أحياناً تبهرهم، هو البرق والصواعق تكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرها»^(١).

الله المحيط

يقول الإمام الرازي في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(١٩) «ما إحاطة الله بالكافرين؟ الجواب: إنه مجاز والمعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط به حقيقة، ثم فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عالم بهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(١٢)»^(٣).

وثانيها: قدرته مستولية عليهم ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾^(٢٠)»^(٤).

وثالثها: يهلكهم من قوله تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾^(٦٦)»^(٥)»^(٦).

مواقفهم بحسب مصالحتهم

ومن أحوال المنافقين ومن اتصف بصفاتهم أنهم يتبعون دين الحق ويمتدحونه ما دامت النعم الدنيوية تتوالى عليهم فإذا ما ابتلاهم الله بأنواع البلاء تركوا السير على الهدى

(١) مرجع سابق ١/ ١٥٣

(٢) البقرة: ١٩

(٣) الطلاق: ١٢ .

(٤) البروج: ٢٠ .

(٥) يوسف: ٦٦ .

(٦) التفسير الكبير / الرازي / مرجع سابق ٢/ ٧٣ .

وأساءوا الأدب مع شرع الله ﷻ ﴿كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ (٢٠) ﴿١﴾.

عبيد المصالح

جاء في تفسير القرطبي: عن ابن عباس: «المعنى كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت النعم قالوا: دين محمد دين مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدة سخطوا وثبتوا في نفاقهم، قال النحاس: وهذا قول حسن، ويدل على صحته: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ (١١) ﴿٢﴾ ﴿٣﴾.

يعبدون الله على حرف

سبحان الله هذا النوع من البشر موجود في كل زمان ومكان، يجعل علاقته مع الله علاقة مصلحة مادية بحته (يعبد الله على حرف) ليس ثابتاً بل متردداً وكأنه على حافة أو طرف، فإذا ما أصيب بالبلاء أو لما يكره ترك الدين والالتزام ﷻ ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ (٢٠) ﴿٤﴾ بينما المؤمن الحق ثابت على دينه في السراء والضراء لا يتزعزع.

يتشبهون بالمنافقين

هذه الفئة ليس بالضرورة تكون من فئة المنافقين الخارجين من الملة، بل ممن يتصفون بصفاتهم، وهي الاستفادة من المبادئ ما دامت في صالحهم، ويضربون عرض الحائط بتلك المبادئ إذا تعارضت مع مصالحهم، وكل حياتهم وعلاقاتهم مبنية على المصلحة.

(١) البقرة: ٢٠.

(٢) الحج: ١١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن/ مرجع سابق ١/ ١٥٦.

(٤) البقرة: ٢٠.

البرجماتيون

أصحاب المصالح الذين يكونون مع المبادئ عندما تكون لصالحهم، وضدها عندما تعارض تلك المصالح، جعلوا ذلك من السياسة والذكاء واسموها (برجماتية) لقد وقفت امريكا مع مسلمي الایجور في الصين لمصلحتها، بينما وقفت ضد مسلمي غزة لان ذلك ليس من مصلحتها. ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ (٢٠) ﴿١﴾.

وقودها الناس والحجارة

وفي قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (٢٤) ﴿٢﴾ يقول الإمام القرطبي: أي «فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطباً لها، أجارنا الله منها. (وَالْحِجَارَةُ) هي حجارة الكبريت الأسود وخصت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الاتقاد، نتن الرائحة، كثرة الدخان، شدة الالتصاق بالأبدان، قوة حرها إذا حميت» (٣).

أجساد تتحول إلى وقود

الوقود هو الذي يزيد من اشتعال النار، ولحم الإنسان و الحجارة إذا القيت في النار فإنها تحترق وتتفحم، ولكن الله تعالى يجعل فيها خاصية الوقود الذي يزيد من اشتعال النار، والاشتعال بهما ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ ولان الانسان لا يموت في النار، ويتجدد جلده، فتستمر النار بالاشتعال ويزداد سعيها لان الانسان وقودها.

(١) البقرة: ٢٠.

(٢) البقرة ٢٤.

(٣) تفسير القرطبي / مرجع سابق ١/ ١٦٣-١٦٤.

تشابه بالأسماء فقط

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مَّتَشَبِهًا^(١)﴾ ذكر الإمام ابن كثير ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مَّتَشَبِهًا^(٢)﴾ قال: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا: التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابهها، يعرفونه وليس هو مثله في الطعم^(٣) وكذلك لا يشبهه حتى في الحجم.

ثمار الدنيا وثمار الآخرة

يقول تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مَّتَشَبِهًا^(٤)﴾ يعطى أهل الجنة الثمار، فهم يعرفونها بأشكالها وأسمائها، ولكنها تختلف بالحجم والمذاق، وطريقة القطف، فكل ما في الجنة من النعيم لم يره احد ولا سمع به ولا حتى خطر على بال أحد «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(٥).

الخلود في الآخرة

يقول تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٦)﴾ لا شك أن هذه الآية تختص بأهل الجنة، ولكن الخلود وهو عدم الموت يكون للجميع، بعد أن يذبح الموت على هيئة كبش بين الجنة والنار، كما صح بالحديث، وشتان بين خلود أهل الجنة وخلود أهل النار، فهؤلاء يزداد نعيمهم وأولئك يزداد عذابهم.

(١) البقرة: ٢٥.

(٢) ابن كثير إسماعيل / تفسير القرآن العظيم / مرجع سابق ص ٨٣.

(٣) البخاري ٤٧٧٩.

(٤) البقرة: ٢٥.

مثال البعوضة

قال القرطبي: «لما ذكر الله العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾^(١) واليهود يقولون ذلك من باب التشكيك بالقرآن ومن باب التشكيك في نبوة الرسول ﷺ»^(٢).

جهل اليهود

ومن حماقة اليهود وحرهم للإسلام منذ مطلع النبوة أنهم يشككون بأن الله لا يتناسب مع عظمته ذكر هذه الحشرات، وهم لا يعلمون بأن الله عظيم، وتتجلى عظمته فيما خلق ويخلق، ولو كانوا يعلمون حين انزلت هذه الآية عظمة الخلق ودقته في البعوضة وما دونها لما قالوا قولتهم.

الإنسان بمخبره لا بمظهره

ومن أبرز الحكم من ذكر مثل البعوضة في سورة البقرة، أن معظم الناس يقيمون الآخرين بحسب مظاهرهم الخارجية، سواء من الملبس أو المركب أو من الخلقة والحجم، أو العائلة أو الجنسية، أو نوع الوظيفة ورصيد المال، ويغيب عنهم عظمة ذلك الشخص بأخلاقه ودينه وبأدائه وانجازاته وعقله ومنطقه.

حقائق عن البعوضة

وتدليلاً على عدم التسرع بالحكم على الآخرين من مظهرهم الخارجي لنعلم بعض الحقائق عن البعوضة:

(١) البقرة: ٢٦.

(٢) تفسير القرطبي / مرجع سابق ١/ ١٦٨.

- ١ - لها مائة عين في رأسها.
- ٢ - لها في فمها ٤٨ سن.
- ٣ - لها ثلاث قلوب في جوفها.
- ٤ - لها ستة سكاكين في خرطومها ولكل واحدة وظيفتها.
- ٥ - لها ثلاث أجنحة في كل طرف.
- ٦ - مزودة بجهاز حراري يعمل مثل نظام الأشعة تحت الحمراء.
- ٧ - وظيفته: يعكس لها لون الجلد في الظلمة إلى لون بنفسجي حتى تراه.
- ٨ - مزودة بجهاز تخدير موضعي يساعدها على غرز إبرتها دون أن يحس الإنسان وما يحس به نتيجة مص الدم..
- ٩ - مزودة بجهاز لتميع الدم حتى يسري في خرطومها الدقيق جدا.
- ١٠ - مزودة بجهاز للشم تستطيع من خلاله شم رائحة عرق الإنسان من مسافة تصل إلى (٦٠) كم.
- ١١ - وأغرب ما في هذا كله أن العلم الحديث اكتشف أن فوق ظهر البعوضة تعيش حشرة صغيرة جداً لا تُرى إلا بالعين المجهرية وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾ (٢٦) (١) - (٢).

(١) البقرة: ٢٦.

(٢) ولئن أراد المزيد من المعلومات DEEP LOOK:

من هم الفاسقون؟

يقول تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) ﴿١﴾ يقول ابن كثير: (والفاسق في اللغة: هو الخارج عن الطاعة أيضا. وتقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة، لخروجها عن جحرها للفساد. وثبت في الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور) (٢).

من هم الخاسرون؟

لما بين أن الفاسقين هم من يضلون بسبب هذا المثل، بين صفاتهم وهي صفات الخاسرين، وهي:

- ١- ﴿الَّذِينَ يَتَقَضُّونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾.
- ٢- ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.
- ٣- ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٣).

بشارتان للمؤمنين

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨) ﴿٤﴾ لقد طمأن الله تعالى الطائعين، وبشرهم ببشارتين:

(١) البقرة: ٢٦.

(٢) ابن كثير إسماعيل / تفسير القرآن العظيم / مرجع سابق ص ١٠٥، والحديث رواه مسلم ١١٩٨.

(٣) البقرة: ٢٧.

(٤) البقرة: ٣٨.

الأولى ؛ عدم الخوف مما سيحدث في اليوم الآخر
 الثاني: عدم الحزن على ما بين أيديهم في الدنيا
 كما أن الله يطمئنهم بذلك وهم في لحظات مفارقة الدنيا.

تفسير البشارتين

يقول ابن كثير: «والمعنى في الآية: فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا.»^(١)

بيع الآخرة

يقول تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِحَياتِكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾^(٢) أي لا تبيعوا ما في الآخرة من متاع دائم باليسير من متع الدنيا الزائلة، فتكتمون الحق للحفاظ على مكتسباتكم الدنيوية.

كتمان الحق

سبحان الله فإن صفة كتمان الحق من أسوء الصفات البشرية، وتدل على ظلم، وحقارة و غش، وهي صفة من صفات بني إسرائيل، بل ومن أبرز معاصيهم، ولكنها أصبحت سمة عامة لجميع عبيد الدنيا وان ملكوا من العلم ما ملكوا، وان تخرجوا من أعرق الكليات الشرعية، فإذا ما لوح لهم اصحاب القرار بالدينار والدرهم باعوا كل ما يعلمون من الحق طمعاً في تلك الزينة المؤقتة التي لا تحت لهم.

(١) ابن كثير إسماعيل / تفسير القرآن العظيم / مرجع سابق ص ١٠٥.

(٢) المائدة: ٤٤.

مخالفة القول للعمل

يقول تعالى مخاطباً بني اسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (٤٤) (١).
يقول ابن كثير: «وَالْغَرَضُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّهُمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ، وَنَبَّهَهُمْ عَلَى خَطِيئَتِهِمْ فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ، حَيْثُ كَانُوا يَأْمُرُونَ بِالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُونَ» (٢) ان من أخطر مشكلات الدعوة المؤثرة سلبياً بالمدعوين، هو عدم تطبيق الدعاة ما يدعون إليه.

تطبيق ما ندعو له

إن من أبرز نقاط القوة في الداعية هو تطبيق ما يدعو إليه، فإن ذلك :

١- يعطي المدعو الإشارة الأولى بصدق ما يدعو إليه.

٢- ويوصل إليه إمكانية تطبيق ما يدعو إليه.

٣- ويزيد المدعو قناعة باتباع ذلك الداعية.

٤- ويسهل عليه ترك الخطأ الذي وقع فيه..

الاستعانة بالصبر والصلاة

يقول تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥) (٣) وقال ابن جرير: «معنى الآية: واستعينوا أيها الأخبار من أهل الكتاب، بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتدللين من مخافته.» (٤)

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) ابن كثير إسماعيل / تفسير القرآن العظيم / مرجع سابق ص ١٠٩.

(٣) البقرة: ٤٥.

(٤) تفسير الطبري / مرجع سابق ١/ ٣٠٠.

قدوات سيئة

يخاطب الله الأحبار ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (١) فهي رسالة ربانية لجميع الدعاة، وتذكير وتنبيه لعب خطير يقع فيه الكثير من الدعاة، وهو (نسيان النفس) والذي يشمل:

١- نسيان الانتباه لبعض العيوب.

٢- نسيان الالتزام ببعض العبادات.

٣- نسيان الالتفات لتربية أبنائه.

انشغالات تنسيهم الأولويات

يقول تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٢) ومن أغرب الأمور أن يكون نسيان الدعاة لأنفسهم هو:

١- انشغالهم بتعلم العلم و تعليمه.

٢- انشغالهم بالدعوة.

٣- انغماسهم بالعمل السياسي

هذه الانشغالات تنسيهم الأولويات، فتكون نتائجها مدمرة.

من أعظم العبادات

الصبر من أعظم العبادات، فهي لغة حبس النفس، فالنفس تواقدة للتفلت والتمرد والأمر بالسوء، وحتى يربيهما الإنسان، ويرتقي بها لا بد أن يحبسها على ما يحبه الله، حتى ترتقي إلى اللوامة ثم المطمئنة، والصلاة هي الصلة بين العبد وربّه، يث من خلالها كل خلجات النفس بين يدي خالقه.

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) البقرة: ٤٤.

الصلاة والخشوع

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١) أي الصلاة والصبر ومعنى، «الخشوع»: التواضع والتذلل والاستكانة، فكلاهما ثقلان على الفاقد للخشوع، صعبة عليه، بينما الخاشع يتلذذ بالصلاة، ويجد فيها الراحة والشفاء لما في الصدور، وراحة النفس عندما تضطرب، والسكون عندما تهب عواصف البلاء، وضغوط الحياة ومشاكلها.

الخشوع والراحة

عندما يكون الخشوع حاضراً أثناء الصلاة لابد أن ينتج عنه الراحة:

١- راحة القلب. ٢- راحة النفس. ٣- راحة البدن.

راحة ينتج عنها محو جميع الهموم المتعلقة بهذه الدنيا الزائلة، لذلك كان النبي ﷺ إذا اشتدت عليه الأمور فزع إلى الصلاة، وكان يقول لبلال: (يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها)^(٢).

الذلة والمسكنة

في قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾^(٣) يقول الإمام الطبري: معنى ضُربت (أي وضعت عليهم الذلة والزموها) ومعنى الذلة: هي الصغار الذي أمر الله - عز وجل - عباده المؤمنين أن لا يعطوهم أماناً على القرار على ما هم عليه من كفرهم به وبرسوله - إلا أن يبذلوا الجزية عليه لهم^(٤).

والمسكنة هي: (الفاقة والحاجة، وهي خشوعها وذلها)^(٥) وإن ملكوا الأموال يشعرون بالذلة والصغار داخل انفسهم.

(١) البقرة: ٤٥.

(٢) رواه أبو داود - صحيحه الألباني صحيح أبو داود ٤٩٨٥.

(٣) البقرة: ٦١.

(٤) تفسير الطبري / مصدر سابق ص ٣٥٦/١.

(٥) المصدر السابق.

حب الله و حب الناس

يتساءل البعض كيف ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة والواقع بخلاف ذلك، فهم في عزة وسيادة، بل هم يتحكمون في حكومات الكثير من دول العالم، فيرد الله في سورة آل عمران ﴿إِلَّا يَجْبِلَ مِنَ اللَّهِ وَجْبَلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ (١) أي لا يعززون ولا يسودون ولا يرتفع عنهم الذل والمسكنة إلا بحبل من الله، أي بعهد من رسول وأمان مقابل الجزية، أو بحبل من الناس، أي قوة عظمى تساندهم وتسبب في عزهم وسيادتهم، كما هو حاصل في هذا الزمان.

سنة الله في الذلة والمسكنة

إنه قدر الله في قتلة الأنبياء لن يتغير ولن يتحول (فقد قضى أن تكتب عليهم) (الذلة والمسكنة) وإذا كان الواقع بخلاف ذلك، فالله يذكر الاستثناء في حالة واحدة، وهي بالعهد مع المسلمين مقابل دفع الجزية، أو بمساندة من قوة عظمى ﴿إِلَّا يَجْبِلَ مِنَ اللَّهِ وَجْبَلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ (٢) ومع ذلك يبقى الشعور بالذلة والمسكنة في نفوسهم.

عقوبات بني إسرائيل

عقوبات بني إسرائيل كثيرة لكثرة جرائمهم ومعاصيهم، ومن ذلك تحايلهم على يوم السبت، فكانت العقوبة المسخ لقردة وخنازير، واختلف المفسرون في هذا المسخ: فمنهم من قال: «هو مسخ للقلوب وليس على الحقيقة مثل الإمام مجاهد» (٣). ومنهم من قال: انما هو مسخ حقيقي الى القردة والخنازير، كما يرجحه الإمام الطبري (٤).

(١) آل عمران: ١١٢.

(٢) آل عمران: ١١٢.

(٣) تفسير الطبري / مصدر سابق ١ / ٣٧٣.

(٤) نفس المصدر السابق.

حقيقة المسخ

واختلف العلماء في المسخ الذي أصاب بعض من بني إسرائيل، هل هو مسخ دائم فيه تناسل إلى يوم القيامة، أم كان محدوداً بزمان معين، والأرجح ما ذكره الجمهور: «المسوخ لا يَنْسُلُ، وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك، والذين مسخهم الله قد هلكوا، ولم يبق لهم نسل»^(١)

قساوة القلوب

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعظة، ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار، ذاب بخلاف الأحجار. وقوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ أي: إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار، وليس الأمر مقتصر على بني إسرائيل، بل هذا هو شأن قلوب الكثير من الناس.

قلوب أقسى من الحديد

الكثير من الناس قلوبهم أقسى من الحديد والحجارة، ولا تتحرك ولا تتأثر وهي ترى الموتى والسكرات وتزور المقابر، وترى العقوبات الإلهية في العصاة كل يوم، بل إن الله فضل الحجارة وذكر أن بعضها ألين من قلوبهم ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءً ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ﴾^(٢)

(١) الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي - مرجع سابق ١/ ٢٩٩.

(٢) البقرة: ٧٤.

ما هي قسوة القلب؟

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾^(١) يقول القرطبي: (القسوة: الصلابة والشدة واليبس، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والاذعان لآيات الله تعالى)^(٢) ومن أبرز أسباب قسوة القلب:

الغفلة عن ذكر الله

فالذكر يربط القلب ويزيده طمأنينة. والإعراض عن ذكر الله يزيده قسوة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾^(٣).

كثرة المعاصي

فان لكل معصية نكتة سوداء في القلب، ومع توالي المعاصي يغذى القلب بالران وتزداد الطبقات عليه حتى يغطي تماماً فلا ينفذ إليه شيء. يقول ابن المبارك:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تَمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يورثُ الذَّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرَكْتُ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عَصِيَانُهَا

التفريط في الفرائض

فالفرائض والنوافل وسائل لتقوية القلب وزيادة الثبات، فالتقصير فيها يسبب القساوة، يقول تعالى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَيِّثَتَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾^(٤).

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / مصدر سابق ١ / ٣١٤.

(٣) طه: ١٢٤.

(٤) المائدة: ١٣.

الانغماس في الدنيا

فالدنيا ليست هدفاً، بل هي وسيلة ومعبراً وجسراً يوصلنا إلى الجنة، فمن اتخذها هدفاً واشغلتها عن الآخرة قسى قلبه.

كثرة الاحتكاك بأهل الغفلة

والمغمسين في الدنيا، وأهل المعاصي، فإن ذلك لاشك أنه يترك أثراً حيث يقول النبي ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل»^(١) يتأثر به من غير أن يشعر، إلا إذا كان هذا الاحتكاك مقصده الدعوة.

عدم الرحمة

للأطفال والفقراء والمساكين والمظلومين والحيوانات، يقول النبي ﷺ لمن لم يقبل أبناءه: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»^(٢)

هجر القرآن

قراءةً وتدبراً وتشافياً وعملاً واحتكاماً، ذلك لأن القرآن هو المنبع الأول، وهو المعين للقلوب، وهو الذكر الحكيم، وهو الفرقان، وهو الوحي.

ولا شك أن من هجر القرآن يقسو قلبه، لأنه لا يعدله وسيلة تلين القلب وتحية مثله ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٣).

(١) رواه أبو داود / وصححه الألباني (صحيح أبو داود ٤٨٣٣).

(٢) رواه ابن حبان وصححه الألباني (ص.ج. ص ٢٥٣٤).

(٣) الفرقان: ٣٠.

الكسل والفتور عن الطاعات

قال المناوي: «الكسل.. والفتور عن القيام بالطاعات الفرضية، والنفلية، الذي من ثمراته قسوة القلب»^(١) ذلك لأن الطاعات وخاصة النوافل من أبرز وسائل تقوية القلب والتقرب إلى الله وفي الحديث القدسي: «وما يزال عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»^(٢)

كثرة الجدل والمراء

قال الشافعي: «المراء في العلم، يقسي القلوب، ويورث الضغائن»^(٣) فإذا كان هذا في مسائل العلم، فكيف إذا كان المراء والجدال في أمور الدنيا البحتة، يقول النبي ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ»^(٤)

كثرة الضحك

يقول تعالى (ثم قست قلوبكم) لاشك أن الضحك والمزاح مباح، وكان النبي ﷺ يضحك ويمزح ولكن الاكثار منه يذهب الخشوع ويجلب قسوة القلب، لذلك قال النبي ﷺ: (لَا تُكْثِرُوا الضَّحْكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحْكِ تَمِثُّ الْقَلْبَ)^(٥).

(١) المناوي عبد الرؤف / فيض القدير / بيروت ١٩٧٢ / دار المعرفة / ١ / ٢٧٨.

(٢) البخاري ٦٥٠٢.

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي ١١٧ / ٣.

(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني (صحيح الترمذي ٣٢٥٣).

(٥) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني (صحيح ابن ماجه ٣٤٠٠).

أحرص الناس على الحياة

يقول تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ﴾^(١) يقول الطبري أي: (يا محمد، لتجدن أشد الناس حرصاً على الحياة في الدنيا، وأشدهم كراهة للموت، اليهود)^(٢) وجعل (حياة) نكرة، أي أي نوع من الحياة، سواء في ذل أو كرامة ما داموا أحياء، ولذلك تجدهم أكثر الناس حرصاً في تجميع المال والهيمنة على الأسواق.

السحرة لا يضررون

قال تعالى عن السحرة: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣) قال الامام الطبري: اي (إلا من قد قضى الله عليه أن ذلك يضره. فأما من دفع الله عنه ضره، وحفظه من مكروه السحر والنفث والرقى، فإن ذلك غير ضاره، ولا نائله أذاه)^(٤) فالساحر ليس له حول ولا قوة، انما الحول والقوة بيد الله وحده.

لا ينفع ولا يضر إلا الله

إن مما يؤسف له أن بعض المسلمين يصل بهم الخوف من السحرة أن ينسون بعض الحقائق الإيمانية، والتي لا ينبغي للمؤمن أن ينساها، وهي من ركائز الإيمان، والتي من أبرزها، أن الله وحده من يملك النفع والضرر، وأنه لا يمكن أن يحدث أمر في هذه الحياة إلا بإذنه، فهو المتحكم بكل حركات هذا الكون.

(١) البقرة: ٩٦.

(٢) تفسير الطبري / مصدر سابق ١/ ٤٧٣.

(٣) البقرة: ١٠٢.

(٤) تفسير الطبري / مصدر سابق ١/ ٥٠٩.

ما يقي من السحر

نعم الساحر يؤذي ولكن هذا الأذى لا يتحكم هو فيه، بل بأمر قدره الله، وإن بدى للجاهل أنه هو المتحكم، والله دلنا في كتابه وعن طريق رسوله ﷺ ما يقينا من شرورهم من أنواع الآيات والأذكار، ومن ذلك الفاتحة وآية الكرسي والمعوذات، وبعض الأذكار، منها: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»، ومنها «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم» وغيرها.

هل الساحر كافر؟

من متعلقات هذه الآيات التي تغيب عن الكثير، هل الساحر كافر؟ يقول الشيخ بن باز رحمه الله: ^(١) «المعروف في الساحر أنه يتعاطى عبادة الجن، فالسحر الذي يكون عن عبادة غير الله يكون كافراً، كما قال جلّ وعلا: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقّاً يَقُولَانِ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ ^(٢) فالسحرة كفار؛ لأنهم يتعبدون بدعاء الجن، والاستغاثة بالجن».

حكم من يلجأ للسحرة

والمسألة الثانية في السحر عن حكم الذي يلجأ للسحرة للاستعانة بهم، يرد الشيخ بن باز على هذه المسألة «الذهاب إلى السحرة منكر، والكهنة والعرفان لا يجوز الذهاب إليهم، ولا سؤالهم، ولا تصديقهم، يقول النبي ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً».

العَرَّافُ الذي يدعي ماهية الأمور، بدعوى علم الغيب، وبخدمة الشياطين والجن،

(١) موسوعة الفتاوى البازية، وموقع الإمام ابن باز.

(٢) البقرة: ١٠٢.

أو بالكف، أو ما أشبه ذلك من الخرافات، أو باستحضار الأرواح، كل هؤلاء يُقال لهم: عَرَّافُونَ»^(١).

أَظْلَمَ النَّاسُ

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾^(٢).
قال الطبري: «قد دللنا فيما مضى قبل، على أن تأويل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه. وتأويل قوله:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، وأي امرئ أشد تعدياً وجراً على الله وخلافاً لأمره، من امرئ منع مساجد الله أن يعبد الله فيها؟»^(٣) وذلك لقيامه بجريمتين:

١ - منع ذكر الله في المساجد. ٢ - السعي في خرابها.

طغاة يمتنعون المساجد

كان المفسرون في السابق عندما يأتون على آية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾^(٤) يفسرونها بأنهم اليهود والنصارى، لأنهم لم يعيشوا إلى الزمن الذي يرون فيه بعض المسلمين الذين تولوا أمور المسلمين في هذا الزمان يقومون بهذا الدور بما يفوق ما قام به اليهود والنصارى.

لذلك قال الشيخ السعدي: «وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش حين صدوا رسول الله ﷺ عنها عام الحديبية، والنصارى حين

(١) المصدر السابق.

(٢) البقرة: ١١٤.

(٣) تفسير الطبري / مرجع سابق ١/ ٥٤٥.

(٤) البقرة: ١١٤.

أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة، الساعين في خرابها، محادة لله»^(١).

أنواع منع المساجد

ومنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه يشمل:

١- منع الصلاة (الفرائض والنوافل)

٢- منع قراءة القرآن.

٣- وأنواع الذكر.

٤- الدروس والمواظع.

وسعى في خرابها تحتل معنيين:

١- هدمها وتدميرها وتقديرها وإهمالها.

٢- وخراب وفساد معنوي بمنع الذكر والصلاة والعبادة فيها، والتضييق على المصلين وأذيتهم.

جريمة منع المساجد^(٢)

هؤلاء الذين يقومون بهاتين الجريمتين سواءً من اليهود والنصارى أو المسلمين:

١- منع ذكر الله في المساجد. ٢- السعي في خرابها.

توعدهم الله بعذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣)

١- الخزي في الدنيا: وهو العار والمهانة والذل والفضيحة.

(١) السعدي عبد الرحمن / تيسير الكريم المنان / مرجع سابق ص ٨٧.

(٢) في عام ١٩٨٢ قام الطاغية حافظ الأسد بنسف ما يزيد على ٨٠ مسجد في حماة.

(٣) البقرة: ١١٤.

٢- عذاب الآخرة: يكفي أن يذكر عذاب في الآخرة، فكيف إذا أضيف له (عظيم) ففيه أنواع العذاب التي لا تخطر على بال أحد.

استحالة رضى اليهود والنصارى عنا

يقول تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبْعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (١٢٠) (لن) أداة نفى تدخل على المضارع فتحوله إلى مستقبل، وعند بعض النحويين بان (لن) تفيد النفي الأبدي، وهذا يعني أنه يستحيل رضا اليهود والنصارى على المسلمين، لا حاضراً ولا مستقبلاً، مهما فعل المسلمون وتنازلوا وجاملوا وطبّعوا، ما لم يتنازلوا عن دينهم وقيمهم وأخلاقهم، والتاريخ يؤكد ذلك.

لا يرضون عنا أبداً

يقول الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبْعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (١٢٠) (٢) «وليس اليهود، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم و يوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك هو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم. ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم، لأن اليهودية ضد النصرانية، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد» (٣).

«واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلا أن تكون يهودياً نصرانياً، وذلك مما لا يكون منك أبداً، لأنك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة. وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل، لم يكن لك إلى إرضاء

(١) البقرة: ١٢٠.

(٢) البقرة: ١٢٠.

(٣) الطبري أبو جعفر / تفسير الطبري / مرجع سابق / ١ / ٥٦٥.

الفريقين سبيل. وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزم هدى الله الذي لجمع الخلق إلى الألفة عليه سبيل»^(١)

حرب مستمرة

من خلال تفسير الآية ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(٢) يستطيع المسلم فهم واستيعاب الكثير من الأحداث السياسية والاجتماعية في هذا الزمان، وتعتمد إبراز النصارى واليهود في الكثير من المجالات الاجتماعية والإنسانية والعلمية والأدبية والتاريخية، وجعلها حكراً عليهم، وعدم قبولهم بامتلاك المسلمين عناصر القوة (الغذاء والدواء والسلاح) وارغام المسلمين شرائها منهم وغيرها الكثير الكثير من الأمور.

سبب تخلي الله عن نصرتنا

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٣) يقول الإمام الطبري: «بقوله: (ولئن اتبعت)، يا محمد، هوى هؤلاء اليهود والنصارى - فيما يرضيهم عنك - من تهود وتنصر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم - من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصت عليك من نبئهم في هذه السورة - ما لك من الله من ولي، يعني بذلك: ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به، ولا نصير، ينصرك من الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته»^(٤).

(١) المرجع السابق.

(٢) البقرة: ١٢٠.

(٣) البقرة: ١٢٠.

(٤) الطبري أبو جعفر / تفسير الطبري / مرجع سابق / ١ / ٥٦٥.

أهواء اليهود والنصارى

ماهي أهواء اليهود والنصارى التي نهانا الله عن اتباعها، وتوعدنا بالتخلي من موالاتنا ونصرتنا إذا تبعنا تلك الاهواء؟

الهوى هو ما ترغبه النفس، وإن كان مخالفاً للشرع، وأهواء اليهود والنصارى كثيرة، ومعظمها مخالف للشرع، فمن ذلك:

١- ان تتنازل عن دينك واخلاقك ومبادئك

٢- إباحة الخمر والميسر

٣- نشر العري والفاحشة

٤- نشر الشذوذ الجنسي واعتباره حرية شخصية

٥- نشر ثقافة التعدي على المقدسات

٦- دعم الموالين لهم من الطغاة وغيرهم

٧. حرية سب الدين والرسول والإستهزاء بهم.

من قواعد النصره

﴿وَلَمَّا أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠) ﴿١﴾

هذه قاعدة إيمانية تشبه قاعدة أخرى ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) ﴿٢﴾ فإذا تحقق الشرط جاءت النتيجة.

لقد حقق الصحابة الكرام الشرط بالرغم من قلة امكاناتهم وعددهم، فوالوا الله ونصروه، ورفضوا اتباع اهواء الذين كفروا، فنصرهم الله في جميع معاركهم مع الكفار.

(١) البقرة: ١٢٠

(٢) محمد: ٧.

قاعدة لا تتغير في النصر

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءُ هُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠) (١)
قاعدة لن تتغير على مر الزمان حتى قيام الساعة، ففي هذا الزمان، ومنذ سقوط الخلافة، كان النهج في معظم الدول الإسلامية هو إتباع أهواء اليهود والنصارى، فكانت النتيجة خسارتنا في جميع معاركنا معهم، وانتصار فئة صغيرة في غزة بإمكانات متواضعة وعدد قليل في جميع معاركها مع اليهود، لأنهم حققوا الشرط.

اعتقاد اليهود أنهم الأفضل

يقول تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) (٢) يعتقد اليهود أنهم أفضل الخلق، وإن الله خلق بقية الخلق عبيدا لهم، ومنها ما ورد في توراتهم المحرفة: «أنتم أولاد للرب إلهكم... لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض» (٣).

شعب الله المختار

يقول تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) (٤) هم يعتقدون حقاً أنهم أفضل خلق الله، وفي مصطلحاتهم نجدهم يخلعون على أنفسهم صفات المدح والتعظيم فيسمون أنفسهم أيضاً بـ(الشعب الأزلي) وبالعبرية (عام عولام)، و(الشعب الأبدي) وبالعبرية (عام

(١) البقرة: ١٢٠ .

(٢) البقرة: ١٢٢ .

(٣) سفر التثنية ١٤ : ٢ .

(٤) البقرة: ١٢٢ .

ينصح)، و(شعب الله) وبالعبرية (عام ألوهيم). وابنني على ذلك احتقارهم للأمم الأخرى وتسميتها بألفاظ السباب والشتائم مثل (الجوييم) و(عاريل) و(مميز) والجوييم (استخدمها العبريون في العصور القديمة بمعنى الهوام والحشرات التي تزحف في جموع كبيرة).

سبب تبرير السيطرة على العالم

ومن هذا المعتقد الذي يعتقده اليهود، رأوا أن من حقهم السيطرة على العالم، الذي يعتقدونه خليط من العبيد والحشرات سخرها الله لهم، ولكن معنى الآية في سورة البقرة تختلف عما يعتقدون، يقول الإمام الطبري: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) وتفضيلي إياكم على عالم من كنتم بين ظهرائه، أيام أنتم في طاعتي»^(١) ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) بما أعطوا من الملك والرسل والكتب، على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً.

اليهود تجار الحرب

ومن خلال هذه الآية نفهم نفسية اليهود في التعامل مع العالم بأسره، وليس مع العرب أو المسلمين فحسب، فقد كانوا وراء دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى، وكانوا وراء اشتعال الحرب العالمية الثانية، انتقاماً من هتلر، وقد ذكر الدكتور عمر عبد العزيز قريشي الكثير من تفاصيل دور اليهود في اشعال الحروب في كتابه (اليهود تجار الحروب) تجدونه في النت، مما يؤكد هذه العقيدة عند اليهود.

(١) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ١ / ٥٧١.

حرمان الإمامة للظالم

قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٣٤) قال الطبري: «هذا خبر من الله جل ثناؤه عن أن الظالم لا يكون إماماً يقتدي به أهل الخير. وهو من الله جل ثناؤه جواب لما يتوهم في مسأله إياه أن يجعل من ذريته أئمة مثله. فأخبر أنه فاعل ذلك، إلا بمن كان من أهل الظلم منهم، فإنه غير مصيره كذلك، ولا جاعله في محل أوليائه عنده، بالكرمة بالإمامة. لأن الإمامة إنما هي لأوليائه وأهل طاعته، دون أعدائه والكافرين به» (٢).

إعادة بناء الكعبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ (١٢٧) (٣) وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين المخلصين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا﴾ (٤) أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ (٥) أي: خائفة ألا يتقبل منهم. كما جاء به الحديث الصحيح

نتعلم منها الكثير من الدروس، منها:

١ - كلمة (يرفع) فيها حركة وتنبأ عن جهد كبير، ففيها حفر للأعماق، ثم رفع لحجارة كبيرة، وصف هذه الحجارة، فمن أراد القيام بعمل يريد له الديمومة والانتاجية لا بد له من بذل الجهد، والتحمل، والتلذذ بالعمل، فكيف إذا كان هذا العمل لله؟

٢ - التفكير بالنتائج المبهجة والمذهلة التي تعقب ذلك الجهد من شأنه تسهيل العمل، وزيادة التحمل، والتلذذ أثناء العمل، بالرغم من التعب والجهد الكبير أثناء البناء، وذلك

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ١/ ٥٧٨.

(٣) البقرة: ١٢٧.

(٤) المؤمنون: ٦٠.

(٥) المؤمنون: ٦٠.

واضح في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم ﷺ ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ (١٢٨) ﴿١﴾.

٣- ان مرحلة التأسيس تتطلب جهداً اضافياً، وتعباً وتحملاً، وتدقيقاً وصبراً، لان النتائج مبنية على دقة البناء والتأسيس، فلا بد من الصبر والتحمل المضاعف لمن يريد التأسيس لأي عمل، فكيف اذا كان هذا العمل لله؟

٤- الحرص على إشراك الأبناء في أعمال الخير، وذلك:

أ- لتعويدهم على عمل هذا النوع من العمل.

ب - لتدريبهم على الخير.

ج - لكسب المهارات والخبرات.

د - لتوريث الصفات الطيبة للذرية.

هـ - الأبناء هم من أفضل الاستثمارات.

٥- الدعاء بعد العمل الصالح بتقبل ذلك العمل، والخوف من عدم القبول، وذلك

للتدقيق على سلامة هذا العمل من الرياء والسمعة والبدعة، وأن يكون كما أراد الله لا كما أراده الإنسان وتماشى مع هواه.

وصية يعقوب لبنيه

يقول تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢) ﴿٢﴾ إنها إشارة إلى أهم ما يجب على الوالدين أن يشغل همهما، ويستغرق وقتها، ويوصيان به أبنائهما في الحياة وعند الموت، وهو الدين والتمسك به والثبات عليه، والموت عليه.

(١) البقرة: ١٢٨.

(٢) البقرة: ١٣٢.

نسيان الوصية

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢) ﴿١﴾ إن مما يؤسف له أن معظم الوالدين يقضي حياته كلها مع أبنائه بالإكثار من وصيتها بالدراسة والتخصص ونوع الوظيفة وطرق كسب المال، وكل ذلك مطلوب، ولكن ليس على حساب الدين والالتزام به.

هم الوالد الصالح

يقول تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ (١٣٣) ﴿٢﴾ إنه الهم الشاغل للوالد الصالح، أن يستمر الصلاح في ذريته من بعده، ولم يذكر القرآن أي وصية لسيدنا يعقوب لبنيه سوى الالتزام بالدين، إشارة إلى أهمية هذا الأمر حتى آخر لحظات الحياة، فكم نصيب الآباء في هذا الزمان من هذا الهم والاهتمام؟؟.

الإيمان شرط الهداية

يقول تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ فَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧) ﴿٣﴾ المعنى العام للآية هو إن آمن الكفار بالله واتبعوا رسوله ﷺ فقد اعتدلوا عن رأيهم. وإن رفضوا الايمان يكونوا هم الخاسرون وسوف يعاقبهم الله ويحفظ رسوله ويحميه منهم، ولكن الأسرار والعبر تكمن في قوله ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾.

(١) البقرة: ١٣٢ .

(٢) البقرة: ١٣٣ .

(٣) البقرة: ١٣٧ .

أسرار الكفاية الإلهية

المعنى الأول:

أول أسرار قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ هو الإعجاز اللفظي في استخدام الرب (اللسين) بدل (سوف) وكلاهما يدخل على المضارع، وكلاهما يفيد الاستقبال الزمني، ولكن الفرق أن السين تفيد الاستقبال الأقصر، بينما سوف تفيد الاستقبال الزمني الأبعد، ومن هنا نعلم بأن حفظ الله وحمايته لرسوله واتباعه لا يستغرق الزمن الطويل.

جاء في ابن كثير في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ فإن الله سينصرك عليهم ويظفرك بهم. عن نافع بن أبي نعيم قال: أرسل إلي بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه. قال زياد: فقلت له: إن الناس يقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قتل، فوقع الدم على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١) فقال نافع: بصرت عيني بالدم على هذه الآية وقد قدم^(٢).

المعنى الثاني:

وجاء في تفسير الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ قوله: (وقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ تعني أن الله تعالى سيكفي رسوله وكان هذا وعدا من الله تعالى للرسول ﷺ، وتم تحقيق هذا الوعد عند قتل بني قينقاع وبني قريظة وإجلاء بني النضير، والكاف والهاء والميم في موضع نصب مفعولان، وقد وقع دم سيدنا عثمان رضي الله عنه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ حين قتل^(٣).

(١) البقرة: ١٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ص ٢٣٥.

(٣) القرطبي محمد / الجامع لأحكام القرآن / مصدر سابق ١ / ٩٧.

المعنى الثالث:

إن المقصود من قول الله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧) (١) أن الله تعالى سوف يكفيك من الأذى والشرور. فلا يجب أن تلتفت إلى أي شخص وثق تمام الثقة أن الله تعالى بجوارك دائماً. وقال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (٣٦) (٢)، فعندما يقرأ المؤمن هذه الآية وهو في أعماق التأمر العالمي على الإسلام وعلماؤه ودعاته يشعر بالطمأنينة بنصر قريب.

المعنى الرابع:

ومن أسرار ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧) (٣) أن ربط الله الكفاية بالسمع والعلم، فقد يطرأ على خاطر الداعية والعالم الغارق بظلم الطغاة، المحاربين للدين والقيم بأن النصر بعيد، ورفع الكربة عسير، وقد يلقي الشيطان في نفسه بأن الله نساه، تأتي هذه الآية لتخبره بأن الله سميع بكل ما يقوله الظلمة، عليم بكل ما يمكرون، والوعد قائم بالكفاية في لحظة يختارها الحكيم.

فوائد من ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾

إن من أبرز الفوائد المستفادة من قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾

- ١- ترسيخ الثقة بالله وبوعده.
- ٢- الطمأنينة والهدوء النفسي.
- ٣- زيادة الثبات على الحق.
- ٤- تحمل البلاء العابر لنصر قادم.

(١) البقرة: ١٣٧.

(٢) الزمر: ٣٦.

(٣) البقرة: ١٣٧.

- ٥- الله سميع لكل ما يقال في الغرف السرية عن الإسلام وحملته وعليم بكل ما يحاك من خطط لوأد الإسلام ودعائه.
- ٦- تلمح النصر القريب.

من صور الكفاية الربانية

من صور الكفاية الربانية لأوليائه:

- ١- تعطيل الجوارح والوسائل التي يستخدمها المؤذي، كما حدث مع السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم، وما حدث في محاصرة بيت النبوة، وخروجه من بين أيديهم وهم لا يبصرون.
- ٢- تسخير جند من جنود الله ضد المؤذي (ملائكة، رياح، ماء، خسف، قذف، نار الخ).
- ٣- تعطيل مصادر القوة لدى المؤذي (كالسلاح والطعام والتكنولوجيا والوحدة).
- ٤- أن يدب الخلاف والفرقة بين الأعداء.
- ٥- اشغال الأعداء بأمور تصرفهم عن أولياء الله.
- ٦- تسليط ظالم آخر على ذلك الظالم.
- ولكن كل ذلك مرتبط بتحقيق شرط ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ (٧) ﴿١٣٨﴾ (١).

صبغة الله

يقول تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ (١٣٨) ﴿٢﴾

يقول الشيخ وهبة الزحيلي: «سمي الدين صبغة بطريق الاستعارة، حيث تظهر سمته

(١) محمد: ٧.

(٢) البقرة: ١٣٨.

على المؤمن، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب»^(١) فكانه يصبغ المؤمن بالأخلاق الظاهرة والباطنة صبغة لامتثالها من بين الأديان.

الصبغة أثر الإيمان

يقول تعالى: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾^(٢) ولأن الصبغة هي الأثر الذي يتركه الإيمان على المسلم، سلوكاً وأدباً وأخلاقاً، نفى الله الإيمان عن فئة من الناس لم يظهر أثر الإيمان على سلوكهم فقال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾^(٣) وجاء في البخاري «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(٤)

أمة الوسط

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٥) والتوسط هو خير الأمور، فكل صفة حميدة لها طرفان، إفراط وتفریط، والوسط هو الأفضل والصواب والمحمود، وعلى سبيل المثال فصفة الشجاعة إن زادت أصبحت تهوراً وإن قلت أصبحت جبناً، والشجاعة في المنتصف.

(١) الزحيلي وهبة / التفسير المنير / بيروت / ١٩٩١ / دار الفكر ٢٢٨ / ١.

(٢) البقرة: ١٣٨.

(٣) الحجرات: ١٤.

(٤) رواه البخاري ٦٤٨٤ وتكملة (والمهاجر من هجر ما بهي الله عنه).

(٥) البقرة: ١٤٣.

ما هي الوسطية؟

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (١٤٣) يقول الماوردي فيه ثلاث تأويلات:

(١) - يعني خياراً من قولهم فلان وسط الحسب في قومه.

٢- من التوسط في الأمور.

٣- يريد بالوسط: عدلاً (٢).

والوسطية هي المنهج الذي اختاره الله لنا، وهو مضاد للتطرف والتشدد أو التفريط والتسيب.

جزاء الوسطية

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (١٤٣) أي بسبب وسطيتكم ستنالون هذه المرتبة العظيمة يوم القيامة، وهي الشهادة على الامم، يقول الشيخ السعدي: (بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم) (٤).

ما هي الشهادة على الناس؟

يقول الماوردي: (لتكونوا شهداء على الناس فيه ثلاثة تأويلات:

١ - لتشهدوا على أهل الكتاب بتبليغ الرسول إليهم رسالة ربهم.

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) الماوردي/ النكت والعيون / الكويت / مطابع المهوي ١٩٨٢ / ١٦٤ / ١.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) السعدي عبد الرحمن / تيسير الكريم / مرجع سابق ١/١٠٦.

- ٢- لتشهدوا على الأمم السالفة بتبليغ أنبيائهم إليهم رسالة ربهم.
 ٣- أي لتكونوا محتجين على الأمم كلها^(١).

الشهود يوم القيامة

يقول الإمام الرازي: (قال ابن زيد الأشهاد أربعة:

١- الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد.

٢- شهادة الأنبياء.

٣- شهادة أمة محمد ﷺ.

٤- شهادة الجوارح^(٢).

ما هي شهادة الرسول ﷺ؟

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٣) يقول ابن عطية: «معناه:

١- بأعمالكم يوم القيامة.

٢- أن يشهد عليكم بالتبليغ إليكم.

٣- وقيل (عليكم) بمعنى لكم، أي يشهد لكم بالإيمان^(٤).

وهذا يجعل المؤمن في حذر من هذا الشاهد العدل يوم القيامة، فيراقب أقواله وأفعاله.

(١) الماوردي / النكت والعيون / مرجع سابق ١٦٤ / ١.

(٢) الرازي فخر الدين / التفسير الكبير / بيروت ١٩٩٠ / دار الكتب العلمية / ٩٢ / ٤.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) ابن عطية / المحرر الوجيز / الدوحة / رئاسة المحاكم ١٩٧٧ / ٧ / ٢.

التسابق للخير

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (١٤٨) ﴿١﴾ يقول الإمام الرازي: (معناه الأمر بالبدار إلى الطاعة في وقتها) ثم ذكر الخلاف بين الشافعي وأبو حنيفة في أفضلية المسابقة بالصلاة أو التأخير، واحتج الشافعي في أفضلية المسابقة باثني عشر دليلاً، سنذكر بعضها بإذن الله.

فضل المسارعة بالصلاة

ذكر الإمام الشافعي عدة أدلة على أفضلية المسارعة في الصلاة، منها:

(١) - لقول النبي ﷺ: (الصلاة خير موضوع) وإذا كان كذلك وجب أن يكون تقديمه أفضل لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (١٤٨) ﴿٢﴾ وظاهر الأمر للوجوب، فإذا لم يتحقق فلا أقل من الندب).

(٢) - قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (١١) ﴿٣﴾ - والصلاة مما يوجب المغفرة، فوجب أن تكون المسابقة إليها مندوبة.

(٣) - قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠) ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) ﴿٥﴾، ولا شك أن المراد منه السابقون في الطاعات، ولا شك أن الصلاة من الطاعات).

(٤) - انه مدح الانبياء المتقدمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (٩٠) ﴿٦﴾، ولا شك أن الصلاة من الخيرات، لقوله ﷺ: «وخير أعمالكم الصلاة».

(٥) - انه ذم إبليس في ترك المسارعة فقال ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (١٢) ﴿٦﴾،

(١) البقرة: ١٤٨.

(٢) البقرة: ١٤٨.

(٣) الحديد: ٢١.

(٤) الواقعة: ١٠ - ١١.

(٥) الأنبياء: ٩٠.

(٦) الأعراف: ١٢.

وهذا يدل على أن ترك المسارعة موجب للذم).

٦- قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ (٢٣٨) ﴿^(١)﴾.

والمحافظة لا تحصل إلا بالتعجيل، ليأمن الفوت بالنسيان وسائر الأشغال.

٧- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا﴾ (١٠) ﴿^(٢)﴾ فيبين أن المسابقة سبب لمزيد من الفضيلة. (٣)

بين الذكر والشكر

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢) ﴿^(٤)﴾ قال الشيخ السعدي: «أمر تعالى بذكره ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما جاء في الحديث القدسي: «إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» (٥).

وذكر الله تعالى أفضله ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذي يثمر معرفة الله ومحبه وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا امر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ (١٥٢) ﴿^(٦)﴾.

والشكر يكون بالقلب اقراراً بالنعم، واعترافاً، وباللسان ذكراً وثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقياداً لأمره، واجتناباً لنهيهِ، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة. قال تعالى: ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (٧) ﴿^(٦)﴾.

(١) البقرة: ٢٣٨.

(٢) الحديد: ١٠.

(٣) الرازي / التفسير الكبير / مرجع سابق ٤ / ١٣٣.

(٤) البقرة: ١٥٢.

(٥) رواه البخاري ٧٤٠٥ ت و بدايته (يقول الله تعالى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي).

(٦) السعدي عبد الرحمن / تيسير الكريم / مرجع سابق ١ / ١١٦.

إنه لشرف عظيم

الله أكبر.. أنت أيها الإنسان، المخلوق المتناهي بالصغر أمام المجرات العملاقة التي تحتوي على النجوم العملاقة، يذكرك رب السموات والأرض في ملأ اعظم من ملأ البشر إذا ذكرته، ما هذه العظمة؟! ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (١)

تفرح فرحاً عظيماً إذا ذكر اسمك أحد المشهورين، أو رموز الدولة أو الصحافة، فكيف عندما يذكرك الله رب العالمين؟!

هل أنتم متصورين الموقف، و مستشعرين اللحظة العظيمة؟!

يا له من شرف.

يا له من موقف.

يا لها من عظمة تذوب وتتبخر أمامها كل عظمة دنيوية.

اللهم لا تحرمنا ذكرك.

أنواع الذكر

يقول الإمام ابن القيم: «أنواع الذكر ثلاثة: ثناء ودعاء ورعاية. فأما ذكر الثناء: فنحو (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر).

وأما ذكر الدعاء فنحو ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢) و«يا حيُّ يا قيومُ برحمتك أستغيثُ» ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعاية: فمثل قول الذاكر: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي، ونحو ذلك» (٣).

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) الأعراف: ٢٣.

(٣) ابن القيم / تهذيب مدارج السالكين ص ٤٦٨.

أنواع الصبر

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣) ﴿١﴾

يقول الشيخ السعدي: (الصبر هو حبس النفس وكفها عما تكره وهو ثلاثة أقسام:

١- صبرها على طاعة الله حتى تؤديها

٢- وعن معصية الله حتى تتركها

٣- وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبة. وخصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجرع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئاً، وحصل على الحرمان.

فلهذا أمر الله تعالى به وأخبر أنه ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة وملكة، بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك، المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة، تقتضي محبته ومعونته، ونصره وقربه، وهذه منقبة عظيمة للصابرين) (٢).

الحياة الأعظم

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤) ﴿٣﴾ يقول الشيخ السعدي أخبر تعالى: إن من قاتل في سبيله، بأن قاتل

(١) البقرة: ١٥٣ .

(٢) السعدي عبد الرحمن / تيسير الكريم / مرجع سابق ١/ ١١٧ .

(٣) البقرة: ١٥٤ .

في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل، مما تظنون وتحسبون.^(١)

حياة الشهداء

يذكر الإمام الرازي عدة أقوال في حياة الشهداء، تعليقا على قوله ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢)

«القول ١: إنهم في الوقت أحياء، كأن الله تعالى أحياءهم لإيصال الثواب إليهم.

القول ٢: لا تقولوا للشهداء ما قاله المشركون، ولكن قولوا: هم أحياء.

القول ٣: لا تقولوا كما يقول المشركون إنهم أموات لا ينشرون ولا ينتفعون بما تحملوا من الشدائد).

ويؤيد القول الأول (أكثر العلماء على ترجيح القول الأول وذلك أن الآيات الدالة على عذاب القبر، كقوله ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أَثْنَتَيْنِ﴾^(٣) والموتان لا تحصل إلا عند حصول الحياة في القبر.^(٤)

الفرق بين الشهيد وغيره

يقول ابن عطية: «والفرق بين الشهيد وغيره إنما هو الرزق، وذلك أن الله فضلهم بدوام حالهم التي كانت في الدنيا، فرزقهم، وروي عن النبي ﷺ في ذلك أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من ثمر الجنة، وروي أنهم في قناديل من ذهب»^(٥).

(١) السعدي عبد الرحمن / تيسير الكريم / مرجع سابق ١/١١٨.

(٢) البقرة: ١٥٤.

(٣) غافر: ١١.

(٤) الرازي / تفسير الرازي / مرجع سابق.

(٥) ابن عطية / المحرر الوجيز / مرجع سابق ٢/٣٠.

الشهداء أذكى الأرواح

يقول سيد في الظلال: (إن هنالك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق. شهداء في سبيل الله. قتلى أعزاء أحياء. قتلى كراماً أذكىاء - فالذين يخرجون في سبيل الله، والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق، هم عادة أكرم القلوب وأذكى الأرواح وأطهر النفوس - هؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتاً. إنهم أحياء. فلا يجوز أن يقال عنهم: أموات. لا يجوز أن يعتبروا أمواتاً في الحس والشعور، ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان. إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه. فهم لا بد أحياء.

إنهم قتلوا في ظاهر الأمر، وحسبما ترى العين. ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة. إن سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد. وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع.. وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله فاعليتهم في نصرته الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة، والفكرة التي من أجلها قتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد، وتأثر الباقيين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد. فهم ما يزالون عنصراً فعالاً دافعاً مؤثراً في تكييف الحياة وتوجيهها، وهذه هي صفة الحياة الأولى. فهم أحياء أولاً بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس).^(١)

ما هو البلاء؟

يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾^(٢)

أول الدروس في هذه الآية ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ فهذا تأكيد من الرب بأن البلاء حتمي

(١) سيد قطب / في ظلال القرآن / بيروت / دار الشروق ١٩٩٥ ص ١٤٣ .

(٢) البقرة: ١٥٥ .

على ابن آدم، والبلاء هو الاختبار، ليعلم الصادق من الكاذب. يقول القرطبي: «والبلاء يكون حسناً ويكون سيئاً. وأصله المحنة، والمعنى لامتحانكم لنعلم المجاهد والصابر علم معاينة حتى يقع عليه الجزاء.

إنما ابتلوا بهذا ليكون آية لمن بعدهم فيعلموا أنهم إنما صبروا على هذا حين وضح لهم الحق. وقيل: أعلمهم بهذا ليكونوا على يقين منه أنه يصيبهم، فيوطنوا أنفسهم عليه فيكونوا أبعد لهم من الجزع، وفيه تعجيل ثواب الله تعالى على العز وتوطين النفس»^(١).

الدرس الثاني في الآية ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ شَيْئًا﴾ أي ان الله من رحمته بخلقه فانه يبتليهم بالشيء اليسير من كل بلاء.

يقول الإمام الطبري: «وإنما قال تعالى ذكره: ﴿شَيْئًا مِّنَ الْخَوْفِ﴾ ولم يقل بأشياء، لاختلاف أنواع ما أعلم عباده أنه مُمتحنهم به. فلما كان ذلك مختلفاً - وكانت «من» تدلّ على أنّ كل نوع منها مُضمّر «شيء»، فإنّ معنى ذلك: ولنبلونكم بشيء من الخوف، وبشيء من الجوع، وبشيء من نقص الأموال - اكتفى بدلالة ذكر «الشيء» في أوله، من إعادته مع كل نوع منها»^(٢).

بشارة الصابرين

قال تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ يقول الإمام القرطبي (قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي بالثواب على الصبر. والصبر أصله الحبس، وثوابه غير مقدر، وقد تقدم. لكن لا يكون ذلك إلا بالصبر عند الصدمة الأولى، كما روى البخاري: قوله ﷺ: «إِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ»^(٣)، أي إنما الصبر الشاق على النفس الذي يعظم الثواب عليه إنما هو عند

(١) القرطبي محمد / الجامع لأحكام القرآن / مرجع سابق / ص ١١٧/٢.

(٢) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق / ٢ / ٤٤-٤٥.

(٣) رواه البخاري ٧١٥٤.

هجوم المصيبة وحرارتها، فإنه يدل على قوة القلب وثبته في مقام الصبر، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك

ولذلك قيل: يجب على كل عاقل أن يلتزم عند المصيبة ما لا بد للأحمق منه بعد ثلاث. وقال سهل بن عبد الله التستري: لما قال تعالى: وبشر الصابرين صار الصبر عيشا. «والصبر صبران: صبر عن معصية الله، فهذا مجاهد، وصبر على طاعة الله، فهذا عابد. فإذا صبر عن معصية الله وصبر على طاعة الله أورثه الله الرضا بقضائه وعلامة الرضا سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحوبات»^(١).

مستحقوا البشارة الربانية

هل هذه البشارة الربانية للصابرين تنطبق على كل مبتلى؟ أم أن هناك صفات لازمة للمبتلى حتى يستحق تلك البشارة؟ هذا ما أجابت عليه الآيات بعد آية البشارة، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢) فهم معتقدون أولاً: إنها مقدرة من الله.

ثانياً: إن الله له حكمة فيها.

ثالثاً: إنها خير.

رابعاً: إنها مصدر أجر وتكفير.

إن الصفة الرئيسة في مستحقي البشارة الربانية من الصابرين ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٣) أنهم دائماً يفسرون البلاء تفسيراً إيجابياً، وينظرون إلى المصيبة من الزاوية التي لا ينظر إليها معظم المصابين بالبلاء، منطلقون من

(١) الجامع لأحكام القرآن / المصدر السابق / ص ١١٧-١١٨.

(٢) البقرة: ١٥٦.

(٣) البقرة: ١٥٦.

عقيدتهم بأن ما أصابهم خير، قد يكون خفي عنهم، ولكنه قطعاً خير، مستحضرون قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (١٦) ﴿١﴾.

الصابرون عند المصائب

هؤلاء الصابرين عند المصائب، والمستحقين لبشارة الله لهم، إنما قالوا عند الصدمة الأولى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) ﴿٢﴾ تأسيا بالمنهج النبوي عند المصيبة:

١- إن العين لتدمع.

٢- وإن القلب ليحزن.

٣- ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.

٤- ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

فالتأثر ونزول الدمع وحزن القلب من طبيعة البشر، ولكن هذه المصائب لا تخرجنا عن الأدب مع الله، ولا تنسينا حقيقة الموت، المصير الحتمي على كل مخلوق، فأأي مصيبة أكبر من الموت ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فكل مصيبة دون الموت أهون.

المصابون نوعان

المصابون بالمصائب نوعان:

١- مصاب يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ بلسانه بينما في واقعه جازع وغير راض بالقضاء والقدر

٢- يقولها بلسانه وقلبه، حيث أنه عندما يقول ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ فهو إقرار بالعبودية والملكية لله، وعندما يقول ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرار بصحة البعث وكل ما يحدث يوم القيامة.

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) البقرة: ١٥٦.

والصنف الثاني هم المعنيون بالبشارة.

معنى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

يقول الإمام القرطبي في تفسيره ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١) هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب، وعصمة للممتحنين: لما جمعت من المعاني المباركة، فإن قوله: انا لله، توحيد وإقرار بالعبودية والملك.

وقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، إقرار بالملك، على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له^(٢) فمن استحضر هذه المعاني عند وقوع المصيبة هانت عليه، واستحق البشارة على صبره.

عطايا الرحمن للصابرين

ما هي العطايا الربانية لمن صبر عند نزول المصيبة، وقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، لساناً وقلباً، واستحضاراً لمعانيها؟؟

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^(٣) إذن هذه العطايا والهدايا:

١ - ﴿صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: غفرانه لعباده.

٢ - الرحمة: يقول القرطبي: «يعني ولهم مع المغفرة التي بها صفح عن ذنوبهم وتغمدتها، رحمة من الله ورأفة»^(٤)

(١) البقرة: ١٥٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن / مرجع سابق ٢/ ١١٩.

(٣) البقرة: ١٥٧.

(٤) المصدر السابق.

٣- الهداية: يقول القرطبي (إنهم هم المهتدون، المصيبون طريق الحق، والقائلون ما يُرضى عنهم، والفاعلون ما استوجبوا به من الله الجزيل من الثواب)^(١).

ماذا أعد الله للكافر؟

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٦) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ^(٢) هذا رد مفصل للجهلة من المسلمين، وللعلمانيين، ولإتباع الملل الأخرى من غير المسلمين، فمن كفر ومات على كفره، فهو لاء لهم الآتي:

١- لعنة الله، وهي الطرد من رحمته.

٢- لعنة الملائكة.

٣- لعنة الناس.

٤- خالدون في جهنم (أي لا يخرجون منها أبداً).

٥- لا يخفف عنهم العذاب (فهم في عذاب متصاعد).

٦- ولا هم ينظرون ويعطون الفرصة ليعتذرون.

ما هو الكفر؟

قبل الحديث عما سيحدث للكافر اذا مات على كفره، من المناسب ان نبين معنى الكفر:

الكفر لغة: كما جاء في المفردات للأصفهاني (ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر

تستره الأشخاص، وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها)^(٣)

(١) المصدر السابق.

(٢) البقرة: ١٦١-١٦٢.

(٣) الأصفهاني / المفردات / مرجع سابق ص ٧١٤.

الكفر اصطلاحاً: ما يضاد الإيمان من الأقوال والأفعال والمعتقدات ومثالاً على ذلك، فعدم الإيمان بالله كفر وعدم الإيمان بالرسول وبما جاء به أو التشكيك بما جاء به كفر، يقول الإمام ابن تيمية: «فتكذيب الرسول كفر، داوته مع العلم بصدقه في الباطن كفر عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة أهل العلم»^(١)

الجهل من علامات القيامة

إن مما يؤلم أن ترى في هذا الزمان أن نضطر لتوضيح ما كان بديهياً في الأزمنة السابقة، وما ذلك إلا بسبب قرب القيامة، لأن من علاماتها فشو الجهل وبروز الجهلاء، خاصة في وسائل التواصل الحديث، يتصدرون هذه الوسائل ويتحدثون بجهل فاضح، ويصدقهم الكثير من الناس، وكان من آخر هذه المهازل، الجدل الذي حدث بين الدعاة وأهل العلم مع الجهلة الذين ترحموا على إعلامية نصرانية قتلها الصهاينة في فلسطين، وجدل آخر حول دخول النصارى الجنة.

أدلة دخول الكافر النار

الأدلة على أن النصراني واليهودي أو أي ملة أخرى من غير المسلمين إذا مات ولم يؤمن بنبينا فمصيره النار كثيرة في القرآن والأحاديث، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لَكُمْ أَسْرَءِيلَ ۖ ااعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾^(٢) وقال

(١) ابن تيمية / منهاج السنة / ٥ / ٢٥١.

(٢) المائدة: ٧٢-٧٣.

رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، لا يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»^(١)

براءة التابعين للمتبعين

يقول تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٢) يذكر الله سبحانه احد مناظر يوم القيامة المرعبة، والتي لو استحضرها التابعون للطغاة والظلمة والفساقون والمشركون، ولكل صاد عن سبيل الله، وكان ذا عقل وبصيرة لترك حالا ما هو عليه، وتاب الى الله توبة نصوحا، انه يذكر صورة براءة هؤلاء قادة الضلال من جميع من اتبعوهم عندما يرون العذاب.

يقول الامام الطبري: «أن الله تعالى ذكره أخبر أن المتبعين على الشرك بالله يتبرأون من أتباعهم حين يعاينون عذاب الله. ولم يخص بذلك منهم بعضاً دون بعض، بل عم جميعهم. فداخل في ذلك كل متبوع على الكفر بالله والضلال أنه يتبرأ من أتباعه الذين كانوا يتبعونه على الضلال في الدنيا، إذا عاينوا عذاب الله في الآخرة»^(٣).

يقول تعالى عن براءة القادة الضالين ممن اتبعوهم: ﴿وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٤) فانتهدت كل مراسيم الولاء والغباء والتصفيق، والغاء العقول، طمعاً بما عند أولئك الطغاة والبلغاة وقادة الضلال، ذهبت تلك المحبة والولاء، وتقطعت كل أواصر تلك العلاقة المبنية على المعاصي والظلم وزينة الحياة الدنيا، يقول الإمام الطبري: ﴿وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾، أسباب الندامة يوم القيامة، وأسباب المواصلة التي كانت بينهم في

(١) رواه مسلم ١٥٣.

(٢) البقرة: ١٦٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن / مرجع سابق / ٧٥ / ٢.

الدنيا يتواصلون بها، ويتحابُّون بها، فصارت عليهم عداوةً، فصارت كلُّ خُلَّةٍ عداوةً على أهلها إلا خُلَّةَ المتقين^(١) ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٢) يا الله أكاد أرى ذلك بعيني وكأنني أرى ذلك الطاغية الذي كان يصفق له الملايين من الأغبياء ويبررون ظلمه، ها هو يتبرأ منهم أمام الله، ويبقون وحدهم دون نصير

وها هو المغني أو الممثل أو الفاشنست المتبوع من الملايين يتبرأ ممن كان يتبعه
وها هو صاحب البدعة الضال الذي يتبعه الملايين يتبرأ ممن تبعه
يا له من يوم، حيث بتبرأ كل متبوع ضال ممن تبعه.

رد فعل التابعين

وتكتمل الصورة عندما يذكر الله ردة فعل الأتباع عندما يتخلى ويتبرأ عنهم من تبعوهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنتَ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبِعُكَ مِنْهُمُ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾^(٣) فهم الآن أدركوا خطأهم، أدركوه متأخراً جداً وبعد فوات الأوان (لَوْ أَنتَ لَنَا كَرَّةٌ) لقد أغلق الباب وانتهت جميع الفرص التي أتيحت لكم، ولكنكم بغبائكم الغيتم عقولكم، وأتبعتم كالبهائم أولئك الضالين.

وبعد تأكد التابعين من إغلاق باب العودة إلى الدنيا، تلاشت آمالهم بالانتقام ممن اتبعوهم، وهنا يزيد الله من عقوبتهم، فيريهم أعمالهم حسرات، يقول الإمام الطبري:

(١) المصدر السابق ٧٦/٢.

(٢) البقرة: ١٦٦.

(٣) البقرة: ١٦٧.

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾^(١٧٧) يقول: كما أراهم العذاب الذي ذكره في قوله: وَرَأَوْا الْعَذَابَ، الذي كانوا يكذبون به في الدنيا، فكذلك يُريهم أيضًا أعمالهم الخبيثة التي استحقوا بها العقوبة من الله ﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: ندامات. وماذا ينفع الندم.^(١)

خطوات الشيطان

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(١٧٨) يقول الشيخ السعدي: «﴿خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: أي طريقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي، من كفر، وفسوق، وظلم.»^(٣)

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(١٧٨) فخبطته مع ابن آدم أن يستدرجه إلى الحرام خطوة خطوة، فهو لا يأمره بالقتل مباشرة، بل يبدأ:

١ - خطوة الخلاف.

٢ - خطوة الاصرار والعناد.

٣ - خطوة الكراهية.

٤ - خطوة الانتقام.

٥ - خطوة تزيين النتيجة.

٦ - ثم خطوة قرار القتل.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(١٧٨) للشيطان اصول يقوم بها لتحقيق هدفه الاسمي، وهو اغواء معظم بني آدم ليكونوا من أهل النار، انتقاما من آدم، وكمثال لهذه الخطوات، إذا أراد اغواء البعض بالزنا، يبدأ معه بعدة خطوات:

(١) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٧٨ / ٢.

(٢) البقرة: ١٦٨.

(٣) السعدي عبد الرحمن / تيسير الكريم / مرجع سابق ١ / ١٣٠.

١- النظر للعوورات.

٢- تزيين هذه المناظر.

٣- اقناعه بتكرار النظر.

٤- محاولات الاتصال بالطرف الآخر.

٥- عمل علاقة آثمة.

٦- ثم التعلق بالطرف الآخر.

٧- قرار الزنا.

وهكذا في بقية المناكر.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿١٣٨﴾ ذكر أهل العلم خطوات الشيطان التي يتدرج فيها لإهلاك بني آدم، ومن ذكر ذلك الإمام ابن القيم في بدائع الفوائد: «حيث ذكر ستة خطوات للشيطان مع ابن آدم:

الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله.

فإن يئس نقله إلى :

الثانية: وهي البدعة وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي.

الثالثة: وهي الكبائر على اختلاف أنواعها.

فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى.

الرابعة وهي: الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، فإذا عجز عن ذلك

نقله إلى الخامسة وهي: إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب.

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى السادسة وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما

هو أفضل منه ثم قال: فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيأ عليه سلط عليه

حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى»^(١)

يقول الشيخ السعدي: «ثم أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - رغبوا عن ذلك وقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ (١٧٠) فاكثفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فأبأؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالاً»^(٢) فهذا صنف من الناس إذا دُعوا إلى الحق عطلوا عقولهم، وحرية الاختيار لديهم وتحججوا بالخوف من تغيير العادات والتقاليد وتراث الآباء والأجداد، أو غيرها من الحجج الواهية.

ينعق بما لا يسمع

يبين الله حال الكافر عندما تدعوه للحق فلا يفهم ما تقول الا سماع صوتك كالحیوان الذي ترعاه، يورد الامام الطبري قول ابن عباس (قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ (١٧١) ﴿٤﴾، كمثّل البعير والحمار والشاة، إن قلت لبعضها «كُلْ» - لا يعلم ما تقول، غير أنه يسمع صوتك. وكذلك الكافر، إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته، لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك»^(٥).

سبب رفضهم للإسلام

ثم بين الله السبب الرئيس الذي يمنع الكفار من دخول الاسلام عندما يدعون إليه، وهو (تعطيل تشغيل أدوات الفهم) السمع والبصر واللسان، فقال: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى﴾

(١) ابن القيم م بدائع الفوائد ٢/ ٢٦.

(٢) البقرة: ١٧٠.

(٣) السعدي عبد الرحمن / تيسير الكريم / مرجع سابق ١/ ١٣٢.

(٤) البقرة: ١٧١.

(٥) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٢/ ٨٥.

فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴿١﴾ تماماً كالبهيمة تسمع صوت الراعي إذا دعاها ولكنها لا تفهم ما يقول، لذلك فهم يعترفون بذلك يوم القيامة عندما يرون العذاب فيقولون: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٢﴾.

آتى المال على حبه

يقول تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ ﴿١٧٧﴾ ﴿٣﴾ أنها من أجمل صفات المؤمنين الصادقين، المقربين من خالقهم، يعطون المال وهم ربما يكونون أكثر حاجة ممن ينفقون عليهم. و في صحيح مسلم أنه: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: أما وأبيك لتنبأته أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تحشى الفقر، وتأمل البقاء، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان» ﴿٤﴾

صفة الإيثار من أعظم الصفات البشرية، ولا يوفق لها إلا فئة يختصهم الله برحمته وحبه، فيوفقهم لمثل هذه الصفة العظيمة، ومن ذلك ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ يشرح النبي ﷺ جانباً من هذه الصفة فيما رواه ابن النسائي «سبق درهم مائة ألف درهم قالوا وكيف؟ قال: كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما وانطلق رجل إلى عرض ماله، فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها» ﴿٥﴾

(١) البقرة: ١٧١.

(٢) الملك: ١٠.

(٣) البقرة: ١٧٧.

(٤) رواه مسلم رقم ١٠٣٢.

(٥) رواه النسائي، وحسنه الألباني (صحيح النسائي ٢٥٢٦).

ما هو البر؟

«قال الأصفهاني: البر هو التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة نحو: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢٨) (١) وإلى العبد تارة، فيقال: بر العبد ربه، أي توسع في طاعته، فمن الله تعالى الثواب» (٢).

وبين سبحانه أن البر ليس بالتوجه نحو المشرق أو المغرب، ولكن البر:

- ١- من آمن بالله.
- ٢- واليوم الآخر.
- ٣- والملائكة.
- ٤- والكتاب.
- ٥- والنبين.
- ٦- وآتى المال على حبه.
- ٧- وإقام الصلاة.
- ٨- وآتى الزكاة.
- ٩- والموفون بعهدهم.
- ١٠- والصابرين.

هؤلاء كما وصفهم رب العزة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١٧٧) (٣).

(١) الطور: ٢٨.

(٢) الراغب الأصفهاني / المفردات / مرجع سابق ص ١١٤.

(٣) البقرة: ١٧٧.

تصحيح مفهوم البر

عندما بُعِثَ النبي ﷺ غير الكثير من المفاهيم الخاطئة التي كانت منتشرة آنذاك، واستمرت حتى بعد مجيئ الإسلام، ومن هذه المفاهيم الخاطئة التي غيرها (مفهوم البر) وبين كما جاء في الآيات أن البر مفهوم أوسع بكثير مما فهموه، فهو فعل الخير بشتى أنواعه (فقد كانوا إذا أحرموا لا يدخلون البيوت من الأبواب بل من الخلف تحرجاً، وظنا منهم أن ذلك من البر، فنزلت الآيات ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ (١٨٩) ﴿١﴾).

أنواع الصبر الثلاثة

تناولنا صفة ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ وهي من صفات الصادقين المتقين، وتناول فيما يلي صفة الصبر الذي جاء في الآية ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ (١٧٧) ﴿٢﴾ فما هي هذه الأنواع الثلاثة من الصبر؟

١ - البأساء: فهي الفقر و الشدة.

٢ - الضراء: تعني في معجم اللغة العربية الضر من مرض وفقد أهل و ولد و مال.

٣ - حين البأس: في ميادين القتال و لدى الضرب و الطعان و منازلة الأقران.

يقول الإمام المراغي: «وخص هذه المواطن الثلاثة مع أن الصبر محمود في جميع الأحوال، لأن من صبر فيها كان في غيرها أصبر، فالفقر إذا اشتدت وطأته ضاق به الصدر، وكاد يفضي إلى الكفر، والضر إذا برح بالبدن أضعف الأخلاق والهمم، وفي الحرب التعرض للهلاك بخوض غمرات المنيّة، والظفر مقرون بالصبر» (٣).

(١) البقرة: ١٨٩.

(٢) البقرة: ١٧٧.

(٣) المراغي أحمد / تفسير المراغي / بيروت / دار الفكر ١٩٤٥ - ١ / ٥٩.

القصاص حياة

يقول تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩) (١)

يقول الإمام الطبري: (ولكم يا أولي العقول، فيما فرضت عليكم وأوجبتم لبعضكم على بعض، من القصاص في النفوس والجراح والشجاج، ما منع به بعضكم من قتل بعض، وقدع بعضكم عن بعض، فحييتم بذلك، فكان لكم في حكمي بينكم بذلك حياة) (٢).

يعلق سيد قطب على الآية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩) (٣) فيقول: (وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم. فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي، يشترك مع القتل في سمة الحياة. فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها. وكان في هذا الكف حياة. حياة مطلقة. لا حياة فرد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة.. بل حياة) (٤).

من هنا تبدو واضحة فداحة جريمة من يقفون من العلمانيين ضد تطبيق الشريعة وإقامة القصاص، بحجة نبذ العنف، انهم يفكرون بالجاني وينسون المجني عليه، ويفكرون بحقن دماء القتاتل، في إيقاف القصاص موت وجريمة، بينما إقامة القصاص حياة وعدالة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩) (٥).

(١) البقرة: ١٧٩.

(٢) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ١١٩/٢.

(٣) البقرة: ١٧٩.

(٤) قطب سيد / في ظلال القرآن / مرجع سابق ١٦٥/١.

(٥) البقرة: ١٧٩.

فإني قريب

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (١٨٦) ﴿١﴾ عندما يصاب المرء بالمصيبة أو الحاجة يبحث بين الناس عمن ينجده، ويقضي حاجته، يتذكر إن كان يعرف من بيده منصب أو جاه ليلجأ إليه، أو يعرف من يعرفه، وإذا عرف، يحتاج صاحب الجاه إلى موعد، وقد يطول الموعد، وقد ترفض المقابلة لكثرة انشغال صاحب المنصب، وفي خضم الانشغال بالمصيبة أو الحاجة ينسى نداء خالقه. ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ فلماذا تذهب للبعيد؟

هذا القرب الكبير بين الرب وعبده لم يكن يستوعبه المسلمون الأوائل، لذلك كانوا يرفعون أصواتهم بالدعاء، كما ذكر ذلك الصحابي أبو موسى الأشعري: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّهَا النَّاسُ ارْزِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ» (٢).

التأخر باستجابة الدعاء

قد يتساءل البعض عن سبب عدم الاستجابة، وهذا خطأ، لأن الله يستجيب كما وعد بذلك في الآية، ولكن نوع الإجابة هي التي لا يستوعبها الكثير، نقل الطبري عن السدي قوله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (١٨٦) ﴿٣﴾، قال: ليس من عبد مؤمن يدعو الله إلا استجاب له، فإن كان الذي يدعو به هو له رزق في الدنيا أعطاه الله، وإن لم يكن له رزقاً في الدنيا ذخره له إلى يوم القيامة، ودفع عنه به مكروهاً) (٤).

(١) البقرة: ١٨٦

(٢) رواه البخاري ٤٢٠٥ ومسلم ٢٧٠٤.

(٣) البقرة: ١٨٦.

(٤) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ١٦٥ / ٢.

من صور استجابة الدعاء

ان من صور استجابة الدعاء «صرف عنه من البلاء بقدر دعائه» فكم يصرف عنا من البلاء بسبب دعائنا الذي لم نرى استجابة ماثلة أمامنا؟!

فهذا يصرف عنه مرض.

وهذا يصرف عنه حريق.

وهذا يصرف عنه حادث سيارة.

وهذا يصرف عنه جريمة نصاب.

وهذا يصرف عنه ظلم ظالم.

أنواع من البلاء تصرف عنا دون أن نشعر أن ذلك كان بسبب دعائنا.

لباس لكم ولباس لهن

يقول تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾^(١) يقول الإمام الطبري: «أن يكون كل واحد منهما جعل لصاحبه لباسا، لتجردهما عند النوم، واجتماعهما في ثوب واحد، وانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه، بمنزلة ما يلبسه على جسده من ثيابه، فقليل لكل واحد منهما هو لباس لصاحبه فهو يلبسها فتستره عن الحرام، وتلبسه فيسترها عن الحرام»^(٢).

الآية الكريمة: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾^(٣) تناول المفسرون الكثير من معانيها الجميلة، والتي تشمل «القرب والملاصقة و الستر والتجميل والغطاء والمتعة

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ١٦٨/٢.

(٣) البقرة: ١٨٧.

والوقاء من الحر والبرد» ومن ابرز تلك المعاني، هو القرب، فمن غير القرب لا تستمر الحياة الزوجية، ومن غير القرب ينعدم التفاهم، ومن غير القرب يكثر الخلاف، ومن غير القرب يفتر الحب فتزيد المشاكل وتنقطع العلاقة.

الكاذب المحتال

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾^(١) أورد الطبري قول ابن عباس: «فهذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بيعة، فيجحد المال، فيخاصمهم فيه إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم: آكل حراما.»^(٢)

يقول تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾^(٣) في هذه الآية يذكر الله صنفا من الناس يصل بهم الانحطاط الاخلاقي انهم يقلبون التهمة والجرم الذي اقترفوه الى المجني عليه، وذلك بالتوجه الى المحاكم والمخافر لرفع القضايا على المجني عليه، وهو يعلم انه هو الجاني لذلك عقب الله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرْقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٤).

ما هي الفتنة؟

كثيرون يفهمون الآية: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٥) بما هو منتشر عند العوام، وهو نقل الكلام من شخص لآخر، فيحدث بينهما شقاق، ولكن المعنى الحقيقي ما اورده

(١) البقرة: ١٨٨.

(٢) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٢ / ١٩٠.

(٣) البقرة: ١٨٨.

(٤) البقرة: ١٨٨.

(٥) البقرة: ١٩١.

الامام الطبري بقوله: «فتأويل الكلام: وابتلاء المؤمن في دينه حتى يرجع عنه فيصير مشركا بالله من بعد إسلامه، أشدُّ عليه وأضرُّ من أن يُقتل مقيماً على دينه متمسكا عليه، مُحَقَّقاً فيه»^(١) وذلك عن طريق التعذيب.

الحرمان قصاص

قوله تعالى: ﴿وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ﴾^(٢) يقول الإمام الطبري: «كان هذا في سفر الحديبية، صدَّ المشركون النبي ﷺ وأصحابه عن البيت في الشهر الحرام، فقاضوا المشركين يومئذ قضية: أن لكم أن تعتمروا في العام المقبل - في هذا الشهر الذي صدوهم فيه، فجعل الله تعالى ذكره لهم شهراً حراماً يعتمرون فيه، مكان شهرهم الذي صدووا، فلذلك قال: «والحرمان قصاص»^(٣).

معية المتقين

يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤) أولاً: ما هي التقوى؟ التقوى في اللغة الوقاية، وفي الاصطلاح الالتزام بأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وبهذا يقي المسلم نفسه من غضب الله تعالى ويفوز برضوانه. ومعنى قولك: اتَّقِ الله: أي: اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، ومنه: قوله ﷺ: «اتَّقُوا النار ولو بشق تمرة»^(٥)

ومن تعاريف التقوى ما ذكره السيوطي «أن رجلاً سأل أبا هريرة عن التقوى؟ فقال له أبو هريرة: هل أخذت طريقاً ذات شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف كنت تصنع إذا

(١) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ١٩٧/٢.

(٢) البقرة: ١٩٤.

(٣) المصدر السابق ٢٠٣/٢.

(٤) البقرة: ١٩٤.

(٥) رواه البخاري ١٤١٣ و مسلم ٢٣٤٧.

رأيت الشوك؟ قال: أَعْدِلْ عنها، أو جاوزتها، أو قَصُرْتَ عنها، قال: ذاك التقوى؛ أي: فكَذَلِكَ التقوى، وبنحوه عن عمر أنه سأل أبي بن كعب، فقال له كما قال أبا هريرة^(١).

وفي هذا يقول عبدالله بن المعتز؛ كما في تفسير ابن كثير:

«خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

وأصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى»^(٢)

وفي الآية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣) بعد معرفتنا ما هي التقوى،

لا بد من الالتفات إلى معنى ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فما هي معية الله التي استحقها المتقون؟

يقول الشيخ بن عثيمين: «ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة التقوى حيث ينال العبد

بها أيش؟ معية الله، فإنه من المعلوم إذا كان الله معك ينصرك ويؤيدك ويثبتك فهذا يدل

على فضيلة السبب الذي هو التقوى، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

إلقاء النفس بالتهلكة

يقول تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾^(٥) إنه أمر عام

للمسلمين بأن ينفقوا في سبيل الله، وألا يمنعهم مانع مما يلقيه الشيطان في نفوسهم

بترك الإنفاق:

(١) السيوطي / الدر المنثور / بيروت ١٩٨٢ / دار الفكر ١ / ٦١.

(٢) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ص ٥٥.

(٣) البقرة: ١٩٤.

(٤) موقع أهل الحديث و الأثر، تفسير سورة البقرة الآية ١٩٤.

(٥) البقرة: ١٩٥.

كالتخويف من الفقر، أو صرفه على بعض أمور الدنيا، أو أي مبرر آخر، فكأنه بذلك يلقي بنفسه إلى التهلكة. ويذكر الإمام القرطبي: «المعنى لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتحافوا العيلة، فيقول الرجل: ليس عندي ما أنفقه، وإلى هذا المعنى ذهب البخاري»^(١).

قول الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١٩٥) ﴿١٩٥﴾ فكل امتناع عن الإنفاق في سبيل الله بسبب أمر من أمور الدنيا إلقاء بالنفس إلى التهلكة، ومما ذكره القرطبي في تفسيره قال (ابن عباس: أنفق في سبيل الله، وإن لم يكن لك إلا سهم أو مشقص، ولا يقولن أحدكم: لا أجد شيئاً، ونحوه عن السدي: أنفق ولو عقلاً، ولا تلقي بيدك إلى التهلكة فتقول: ليس عندي شيء)^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١٩٥) ﴿١٩٥﴾ يذكر القرطبي قولاً آخر في تفسير الآية.

(وقول ثالث قاله ابن عباس، وذلك أن رسول الله ﷺ لما أمر الناس بالخروج إلى الجهاد قام إليه أناس من الأعراب حاضرين بالمدينة فقالوا: بماذا نتجهز! فوالله ما لنا زاد ولا يطعمنا أحد، فنزل قوله تعالى: وأنفقوا في سبيل الله يعني تصدقوا يا أهل الميسرة في سبيل الله، يعني في طاعة الله. ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة يعني ولا تمسكوا بأيديكم عن الصدقة فتهلكوا)^(٣).

(١) القرطبي محمد / الجامع لأحكام القرآن / مرجع سابق ٢ / ٢٤١.

(٢) البقرة: ١٩٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البقرة: ١٩٥.

(٥) المصدر السابق.

ما هي التهلكة بعدم الإنفاق؟

اختلف المفسرون في معنى التهلكة عند عدم الإنفاق في سبيله، ونقل هذا الاختلاف الإمام القرطبي فقال: «التهلكة بضم اللام مصدر من هلك يهلك هلاكاً وهلكاً وتهلكةً، أي لا تأخذوا فيما يهلككم، قاله الزجاج وغيره. أي إن لم تنفقوا عصيتم الله وهلكتم، وقيل: إن معنى الآية لا تمسكوا أموالكم فيرثها منكم غيركم، فتهلكوا بحرمان منفعة أموالكم، ومعنى آخر: ولا تمسكوا فيذهب عنكم الخلف في الدنيا والثواب في الآخرة»^(١).

ما هو الإحسان؟

يقول تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢) فما هو الاحسان؟

الإحسان لغةً هو ضد الإساءة، ويقال: حسنت الشيء تحسناً، أي: زينته واصطلاحاً كما قال الراغب: «الاحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الانعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً، فالإحسان زائد على العدل»^(٣)

يقول تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤) يقول محمد عويضة، في كتابه فصل الخطاب في الزهد والرقائق (جعل الله - سبحانه وتعالى - الدين قائم على ثلاث مراتب، وهي الإسلام، والإيمان، والإحسان، إذ إن الإحسان أعلى مرتبة من المرتبتين السابقتين، لأن التقرب إلى الله ونيل رضاه يكون بالإحسان إلى النفس والإحسان إلى

(١) القرطبي محمد / الجامع لأحكام القرآن / مرجع سابق ٢/ ٢٤٢.

(٢) البقرة: ١٩٥.

(٣) الراغب الأصفهاني / المفردات / مرجع سابق ص ٢٣٦.

(٤) البقرة: ١٩٥.

الخلق، ومن ذلك يتضح لنا أن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن، وليس كل مؤمن محسن، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً.^(١) فقد جاء الحث على الاحسان في الحديث الذي رواه مسلم قول النبي ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ »^(٢). وهو إشارة للمسلم بأن يوقع الأمر بأكمل وجه، وهذا ما يريده الخالق من عبده المسلم، فالإحسان من أكمل صفات الناجحين في الدنيا والآخرة.

أنواع الاحسان

مما مضى يتبين أن الاحسان ينقسم إلى قسمين:

١ - التعامل مع الخلق (بشر وحيوان).

٢ - التعامل مع الله.

فالتعامل مع الخلق هو أن يتعامل المسلم مع أخيه المسلم بأفضل ما لديه من الصفات، وخاصة من أوجب الشرع عليه طاعتهم والاحسان إليهم مثل الوالدين ومن يلي أمرهم. أما التعامل مع خالقه فقممة الاحسان، كما جاء في الحديث «تَحْشَى اللَّهُ تَعَالَى، كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٣).

حقيقة التوكل

البعض يفهم التوكل بأنه ترك الاسباب، ويظن بان الله يرزقه من غير بذل للأسباب، فصحيح الله لهم هذا المفهوم، خاصة لمن عقدوا النية للحج

(١) عويضة محمد / فصل الخطاب في الزهد والرقائق / ٨ / ٢٦.

(٢) رواه مسلم ١٩٥٥ ورواه أبو داود ٢٨١٥.

(٣) رواه الإمام أحمد / وصححه أحمد شاكر / رقم ٨ / ١٣١.

ينقل ابن كثير عن قول ابن عباس (قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون. فأنزل الله: ﴿فَاتَّكِ حَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾^(١) ويقول ابن عمر: (فنهوا عن ذلك، وأمروا أن يتزودوا الكعك والدقيق والسويق)^(٢).

خير الزاد

يقول ابن كثير (وقوله: ﴿فَاتَّكِ حَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾^(٣) لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿وَرِدْشًا وَلِيَّاسًا أَلْتَقَوَى ذَلِكَ حَيْرٌ﴾^(٤) لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشدا إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع، والطاعة والتقوى وذكر أنه خير من هذا، وأنفع.

قال عطاء الخراساني في قوله: ﴿فَاتَّكِ حَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾^(٥) يعني: زاد الآخرة)^(٦).

يقول تعالى: ﴿فَاتَّكِ حَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾^(٧) والزاد نوعان؛ دنيوي وأخروي. فالزاد الدنيوي: يساعد جسد الانسان على البقاء في الحياة، ويحميه من الامراض والاضرار الصحية الجسدية.

وزاد الآخرة: وهو زاد التقوى يساعد روح الإنسان على التمتع في هذه الحياة في سعادة غامرة

ويقيه عقوبة الدنيا والآخرة، ويوصله إلى بر الأمان.

(١) البقرة: ١٩٧.

(٢) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ص ٢٩٨.

(٣) البقرة: ١٩٧.

(٤) الأعراف: ٢٦.

(٥) البقرة: ١٩٧.

(٦) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ص ٢٩٨.

(٧) البقرة: ١٩٧.

ذكر الله عمل

يقول تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾^(١) يقول الإمام الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه واذكروا الله أيها المؤمنون عند المشعر الحرام بالشاء عليه، والشكر له على أياديه عندكم، وليكن ذكركم إياه بالخضوع لأمره، والطاعة له والشكر على ما أنعم عليكم من التوفيق، لما وفقكم له من سنن إبراهيم خليله بعد الذي كنتم فيه من الشرك والحيرة والعمى عن طريق الحق وبعد الضلالة كذكره إياكم بالهدى، حتى استنقذكم من النار به بعد أن كنتم على شفا حفرة منها، فنجاكم منها»^(٢) وفي ذلك إشارة للمؤمنين أن يتذكروا نعمة الهداية والتي هي من أعظم النعم، عند كل توفيق لطاعة.

الذكر عند المشعر الحرام

إن أمره سبحانه وتعالى المؤمنين أن يذكروا الله عند المشعر الحرام، ويذكروه لهدايته لهم، إشارة للمؤمن أن يتذكر نعم الله عليه، وفضله عليه عند كل توفيق لطاعة، وتيسير تلك الطاعات له، فلولا فضل الله لنا لما وفقنا لمثل هذه الطاعات، بينما ملايين البشر لم يوفقوا لمثلها، وأن الفضل كله لله، فلا يستدرجه الشيطان ولو للحظه أن ينسب الفضل له، ولا جتهاده وسعيه.

أورد الطبري «عن قتادة: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾»^(٣) قال قتادة: كان أهل الجاهلية إذا قضوا مناسكهم بمنى قعدوا حلقاً فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية وفعلهم به، يخطب خطيبهم ويحدث محدثهم، فأمر الله عز وجل المسلمين أن يذكروا الله كذكر أهل الجاهلية آباءهم أو أشد ذكراً»^(٤).

(١) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٢/ ٣٠٣.

(٢) البقرة: ٢٠٠.

(٣) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٢/ ٣٠٩.

هكذا كان الاسلام يغير عاداتهم الجاهلية بتدرج وحكمة، وفي ذلك اشارة للدعاة أن يترفقوا بمن يدعونهم، وألا يثقلوا عليهم، بل يصبروا على عيوبهم وأخطائهم وضعفهم، وبالتدريج حتى يتخلصوا من معاصيهم وضعفهم.

قال الإمام الطبري: (يعني بذلك جل ثناؤه: فإذا قضيتم مناسككم أيها المؤمنون فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، وارغبوا إليه فيما لديه من خير الدنيا والآخرة بابتهال وتمسكن، واجعلوا أعمالكم لوجهه خالصاً ولطلب مرضاته، وقولوا: ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)^(١)، ولا تكونوا كمن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، فكانت أعمالهم للدنيا وزينتها، فلا يسألون ربهم إلا متاعها، ولا حظّ لهم في ثواب الله، ولا نصيب لهم في جناته وكريم ما أعدّ لأوليائه، كما قال في ذلك أهل التأويل.

لا تنسوا الدعاء للآخرة

أورد الإمام الطبري قول: (أبا بكر بن عياش في قوله: « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق »)^(٢)، قال: كانوا -يعني أهل الجاهلية- يقفون -يعني بعد قضاء مناسكهم- فيقولون: « اللهم ارزقنا إبلاً! اللهم ارزقنا غنماً! »، فأنزل الله هذه الآية)^(٣).

وأورد قول الإمام مجاهد (في قول الله « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا » نصراً ورزقاً، ولا يسألون لآخرتهم شيئاً)^(٤) ونتعلم من هذه الآية ألا نكون كالجاهليين فنقصر دعاءنا على أمور الدنيا، وننسى الآخرة، فهي الباقية والدنيا وما فيها زائلة.

(١) المرجع السابق بص ٣١٠.

(٢) البقرة ٢٠٠.

(٣) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٣١١ / ٢.

(٤) المرجع السابق.

قلوبهم تخالف ألسنتهم

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (١) يقول الإمام المراغي: أي ومن الناس فريق يعجبك قوله وأنت في هذه الحياة الدنيا، لأنك تأخذ بالظواهر، وهو منافق يظهر غير ما يضمّر ويقول ما لا يفعل، فهو يعتمد على خلاصة اللسان، في غش المعاشرين والأقران، ويوهم أنه صادق الإيثار، نصير للحق خاذل للباطل، متق لله في السر والعلن، مجتنب للفواحش ما ظهر منها وما بطن. ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي ويحلف بالله أن ما في قلبه موافق لما يقول ويدعي. ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي وهو قوى في الجدل لا يعجزه أن يغش الناس بما يظهر من الميل إليهم والسعي في إصلاح شئونهم. «(٢)».

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٣) يقول صاحب الظلال: (هذا المخلوق الذي يتحدث، فيصور لك نفسه خلاصة من الخير، ومن الإخلاص، ومن التجرد، ومن الحب، ومن الترفع، ومن الرغبة في إفاضة الخير والبر والسعادة والطهارة على الناس.. هذا الذي يعجبك حديثه. تعجبك ذلاقة لسانه، وتعجبك نبرة صوته، ويعجبك حديثه عن الخير والبر والصلاح.. (ويشهد الله على ما في قلبه). زيادة في التأثير والإيحاء، وتوكيدا للتجرد والإخلاص، وإظهارا للتقوى وخشية الله. (وهو ألد الخصام)! تزدحم نفسه باللدد والخصومة، فلا ظل فيها للود والسماحة، ولا موضع فيها للحب والخير، ولا مكان فيها للتجمل والإيثار) (٤).

(١) البقرة: ٢٠٤.

(٢) المراغي أحمد / تفسير المراغي / بيروت / دار الفكر ١٩٤٥ - ١ / ١١٠.

(٣) البقرة: ٢٠٤.

(٤) سيد قطب / في ظلال القرآن / مرجع سابق ١ / ٢٠٤.

من أسوء الأصناف البشرية

سبحان الله الخالق، الذي كما أبدع وخلق، كذلك أبدع وأتقن في كلامه العظيم في إبراز تفاصيل التفاصيل عن أنواع البشر الذين خلقهم هو، فمن أتقن منه في شرح تفاصيلهم؟؟ إنه يخبرنا عن أحد أسوء الأصناف البشرية، ذلك الذي يظهر غير ما يبطن، ذلك الذي يظهر الإخلاص والنقاء والتجرد والوطنية وحب الدين والقيم، ويظهر الكفاح من أجل الأخلاق، وهو في حقيقته وفي أعماق قلبه ضد كل ما يظهره، فما هو إلا ألد الأعداء للدين والقيم والاخلاق، وكل الصفات البشرية (وهو ألد الخصام) فالخذر الخذر منه.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (٢٠٥) يقول الإمام الطبري: (فمعنى الآية: وإذا خرج هذا المنافق من عندك يا محمد غضبان، عمل في الأرض بما حرم الله عليه، وحاول فيها معصية الله، وقطع الطريق وإفساد السبيل على عباد الله، كما قد ذكرنا أنفاً من فعل الأخنس بن شريق الثقفي، الذي ذكر السدي أن فيه نزلت هذه الآية، من إحراقه زرع المسلمين وقتله محرهم) (٢).

وبسبب خطورة هذا النوع من البشر على الأمن الاجتماعي، وسلامة العلاقات الاجتماعية، فإن الخالق يزيد في كشف تفاصيل هذا الصنف الخطير من البشر، فهو إذا كان معك يظهر لك أجمل الأخلاق البشرية، ولكنه إن فارقك قام بتنفيذ خصاله الأصلية فيه:

١ - الاتفاق مع أعدائك ضدك.

٢ - الأضرار بممتلكاتك كفرد وكأمة.

سواءً بالسرقة المباشرة، أو أتلافها، بسبب حقه وحنقه عليك.

(١) البقرة: ٢٠٥.

(٢) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٢/ ٣٢٨.

٣- نشره للفتنة بينك وبين الآخرين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلِئْسَ الْمُهَادُّ﴾ (٢٦) ^(١) ويكمل الله صفات ذلك الصنف الخطير، يقول الإمام الطبري: (يعني بذلك جل ثناؤه: وإذا قيل لهذا المنافق الذي نعت نعتي لنبيه عليه الصلاة والسلام، وأخبره أنه يُعجبه قوله في الحياة الدنيا: اتق الله وخفه في إفسادك في أرض الله، وسعيك فيها بما حرم الله عليك من معاصيه، وإهلاكك حروث المسلمين ونسلهم - استكبر ودخلته عزة وحمة بما حرم الله عليه، وتمادى في غيّه وضلاله. قال الله جل ثناؤه: فكفاه عقوبة من غيه وضلاله، صلي نار جهنم، ولبس المهاد لصاليها). ^(٢)

أخطر ما فيه من الصفات

ويشير الخالق هنا الأخطر ما في هذا الصنف من الصفات، وهو الغضب المدمر إذا ما بينت له خطأه، وأنكرت عليه جرائمه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ (٢٦) ^(٣) فقد تكون ردة فعله:

إذا كانت لديه سلطه:

١- أن يلفق لك تهمة.

٢- ويأمر باعتقالك.

٣- وإصدار أحكام قاسية.

٤- مصادرة ممتلكاتك.

٥- تشويه سمعتك بالإعلام.

(١) البقرة: ٢٠٦.

(٢) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٢ / ٣٣١.

(٣) البقرة: ٢٠٦.

٦- القتل لك ولأقربائك ومحبيك.

(اتق الله) يكرهها الطغاة

اللفظ القرآني عندنا تناول هذا الصنف الخطير في المجتمع، وأنه لا يرضى من أحد النصيحة، خاصة إذا كانت بسبب ظلم أو خطأ يقع فيه، ذكر أن الناصح لم يسب ولم يتفوه بكلمة تعاب، بل ذكره بالله (اتق الله) هاج وماج، وانتفخت أوداجه، وتلبسه الشيطان تماماً، وأوهمه أن هذا النصح إهانة، وتقليل من شأنه، واستنقاص من شخصه، بالرغم أن الناصح قال له (اتق الله) فماذا عساه أن يصنع لو تجاوز الناصح (اتق الله)؟

أهمية دراسة الشبهات

ومن موقف سيدنا إبراهيم مع النمرود نتعلم بأن الداعية الذي كرس نفسه لمجادلة الملحدين أو المتشككين، لابد أن يدرس دراسة عميقة هذه الشبهات ويحضر لها أجوبة مقنعة، لأن الملحد والمتشكك في رأسه الكثير من الشبهات، فينتقل من واحدة إلى أخرى، ومن أراد أن يتدرب على ذلك فليشاهد فيديوهات الشيخ أحمد ديدات رحمه الله وتلميذه الدكتور ذاكر نايك.

مقومات نجاح الدعاة

ومن حوار سيدنا إبراهيم والنمرود نتعلم بأن من أبرز مقومات نجاح الداعية في اقناع الآخرين:

- ١- العلم بالقرآن والتفسير ولو بشكل عام.
- ٢- العلم بالحديث بشكل عام.
- ٣- دراسة أهم القضايا التي يطرحها الملحدون والمتشككون.
- ٤- الحلم وعدم الانفعال.

- ٥- عدم رفع الصوت.
- ٦- الابتعاد عن التجريح.
- ٧- الاستماع لأصحاب الخبرة في هذا المجال.
- ٨- الدعاء بالتوفيق.
- ٩- وقبل ذلك كله الإخلاص.
- ١٠- التركيز على نقطة واحدة وعدم التشتت.
- ١١- الانطلاق من القضايا المتفق عليها بين الطرفين.

السعي للمزيد من اليقين

يقول تعالى عن طلب سيدنا إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ قَالَ أُولَئِمَّا تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ ﴿٦٠﴾ (١) يقول الإمام الطبري: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ﴾ ليسكن ويهدأ باليقين الذي يستيقنه. إلى أنه ليزداد إيماناً، أو إلى أنه ليقون (٢) فطلب سيدنا إبراهيم من الرب هذا الطلب ليس من باب الشك (حاشاه) ولكنه طلب زيادة اليقين وسكينة القلب وزيادة الإيمان، ويشبه ذلك قراءتنا ونقلنا لقصص تأثر الكفار بآيات القرآن، أو البحوث العلمية عن تكون الجنين، وتأثير البان وابوال الإبل وغيرها من الأمور التي ذكرها القرآن أو السنة.

التجارة مع الله

يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣)

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٥٢/٣.

(٣) البقرة: ٢٦١.

يقول الشيخ السعدي: «هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين، وبلي ذلك الإنفاق على المحتاجين والفقراء والمساكين، وقد يجتمع الأمران في النفقة دفع الحاجات والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمئة إلى أضعاف أكثر من ذلك»^(١)

يقول تعالى عن مضاعفة الأجر للمنفقين ﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾^(٢) هذا يعني أن من أنفق شيئاً في سبيل الله فإن الله يضاعفه له مثل من أنفق حبة واحدة فضاعفها له (٧٠٠) لأن السنبلة الواحدة ١٠٠ حبة، ثم تستمر المضاعفة بعد ذلك ﴿وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾^(٣) فلا يضيع عند الله شيء مادام خالصاً له، خالياً من الرياء.

روى الإمام مسلم، من حديث سليمان بن مهران، «جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»^(٤) فكل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، ولا يتوقف الأجر بل يستمر التضاعف إلى ما يشاء الله، فأين المتسابقون لشراء الجنة؟؟

هذه المضاعفة العظيمة في الأجر للمنفقين مرتبطة بشرط ألا وهو أن يكون هذا الإنفاق (في سبيل الله) وليس في سبيل الكسب الدنيوي، أو الرياء، أو الوصول إلى غايات دنيوية، لأن الله اشترط في قبول العمل شرطين:

- ١ - أن يكون خالصاً لله.
- ٢ - أن يكون صحيحاً على السنة، غير مبتدع، ومن هنا لزماً على المسلم مراجعة نيته

(١) السعدي عبد الرحمن / تيسير الكريم الرحمن / مرجع سابق ٢٠٩/١.

(٢) رواه مسلم ١٨٩٢.

عندما ينفق، فإن كانت لغير الله أو فيها شيء لغير الله، فليعمل على تنقيتها وتصحيحها،
لأن تضيع يوم القيامة ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٢٣).^(١)

الأجر مقيد الشرطين

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٢).^(٢) في هذه الآية قيد الله أجر المنفق بعد الإخلاص بشرطين:

١- عدم المن. ٢- عدم الأذى.

وكلاهما مبطل للصدقة كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ (٣٦).^(٣) أنه لأمر خطير أن تبطل الصدقات بصفتين لا يشعر بهما الكثير من الناس، وهما (المن والأذى) فماذا تعنيان؟

المن: هو تعداد النعمة على من أنعمت عليه، كأن تقول: ألم تذكر أنني أعطيتك كذا وفعلت لك كذا، ووقفت معك في يوم كذا، وصنعت لك ذلك المعروف.

الأذى: كل ما يؤذي المنعم عليه كأن تقول له: هذي آخر مرة أعطيتك، أو أنت كثير الطلب، أو داخلتنى الريبة في حاجتك، أو أي كلمة تؤذي مشاعر المنعم عليه أو تجرحه. من الاحاديث المخيفة في عقوبة المنان بالصدقة ما رواه الامام مسلم في صحيحه «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكّيهم، وهم عذاب أليم: المنان الذي لا يعطي شيئاً إلا مئة، والمنفق سلعة بالفاجر، والمسبل إزاره.»^(٤)

(١) الفرقان: ٢٣.

(٢) البقرة: ٢٦٢.

(٣) البقرة: ٢٦٤.

(٤) رواه مسلم ١٠٦.

هديتان لمن أوفى بالشرطين

من أوفى بشرطي الصدقة، نال جزائين من عند الله، يقول الإمام الطبري: (ومعنى قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ^(١) لهم ثوابهم وجزاؤهم على نفقتهم التي أنفقوها في سبيل الله، ثم لم يتبعوها منّا ولا أذى.

وقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ^(٢) يقول: وهم، مع ما لهم من الجزاء والثواب على نفقتهم التي أنفقوها على ما شرطنا ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ^(٣) عند مقدمهم على الله وفراقهم الدنيا، ولا في أهوال القيامة، وأن يناهم من مكارهاها أو يصيبهم فيها من عقاب الله ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ^(٤) على ما خلفوا وراءهم في الدنيا).

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ ^(٥). يقول الإمام الطبري: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، قولٌ جميل، ودعاء الرجل لأخيه المسلم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾، يعني: وسترٌ منه عليه لما علم من خلّته وسوء حالته (خَيْرٌ) عند الله ﴿مِّنْ صَدَقَةٍ﴾ يتصدقها عليه ﴿يَتْبَعُهَا أَذًى﴾، يعني يشتكيه عليها، ويؤذيه بسببها) ^(٦)

وهذا يعني أن يمتنع عن إعطاء الفقير، مع الدعاء له بوجه مبتسم، وستر على ما علم من حاله وحاجته، خير عند الله من ذلك المعطي، ويتبع عطاءه بما يؤذي من القول الجارح لمن اعطاه، وفضيخته.

(١) البقرة: ٢٦٢.

(٢) البقرة: ٢٦٢.

(٣) البقرة: ٢٦٣.

(٤) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٦٤ / ٣.

لا تبطلوا صدقاتكم

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ (٣٦٤) يقول الإمام ابن كثير: (أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من رأى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه) (٢) فالمرائي والمان والمؤذي لمن يعطون، بالقول والفعل سواء في بطلان صدقاتهم.

ضرب الله مثلاً عن الذي يبطل صدقته بالمن والأذى فقال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٦٤) (٣).

يقول الإمام الطبري: (و الصفوان) هو «الصفاء»، وهي الحجارة الملس.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾، يعني: على الصفوان ترابٌ ﴿فَأَصَابَهُ﴾ يعني: أصاب الصفوان ﴿وَابِلٌ﴾، وهو المطر الشديد العظيم، وقوله: ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ يقول: فترك الوابل الصفوان صلداً.

و«الصلد» من الحجارة: الصلب الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره.

(ثم رجع تعالى ذكره إلى ذكر المنافقين الذين ضرب المثل لأعمالهم، فقال: فكذلك أعمالهم بمنزلة الصفوان الذي كان عليه تراب، فأصابه الوابل من المطر، فذهب بما عليه من التراب، فتركه نقياً لا تراب عليه ولا شيء، يراهم المسلمون في الظاهر أن لهم أعمالاً

(١) البقرة: ٢٦٤.

(٢) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ص ٣٩٤.

(٣) البقرة: ٢٦٤.

- كما يُرى التراب على هذا الصفوان - بما يراؤونهم به، فإذا كان يوم القيامة وصاروا إلى الله، اضمحل ذلك كله، لأنه لم يكن لله، كما ذهب الوابل من المطر بما كان على الصفوان من التراب، فتركه أملس لا شيء عليه).^(١)

إنه تحذير شديد من الله للمؤمنين من خلال هذا المثل ألا يكون مصيرهم يوم القيامة كمصير المنافقين والمرائين، فيبطلون أعمالهم يوم القيامة بسبب مراعاتهم يقول الطبري: (فقال تعالى ذكره للمؤمنين: لا تكونوا كالمنافقين الذين هذا المثل صفة أعمالهم، فتبطلوا أجور صدقاتكم بمنكم على من تصدقتم بها عليه وأذاكم لهم، كما أبطل أجر نفقة المنافق الذي أفق ماله رياء الناس، وهو غير مؤمن بالله واليوم الآخر، عند الله).^(٢) فجبر الخواطر، ومراعاة المشاعر خير عند الله من صدقة يتبعها أذى.

مثل المنافقين الصادقين

يقول تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْطَاهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٦٥﴾^(٣).

إذن فهؤلاء المؤمنون كانت لهم غايتان في الإنفاق:

- ١ - ابتغاء وجه الله، لا يريدون الثناء والمدح، ولا أي زينة من زينة الدنيا، لذلك وضعوها فيما يحب الله من أمور الخير ونصرة الدين وإعانة من يجاهد في سبيله.
- ٢ - تثبيتاً لأنفسهم.

هؤلاء المؤمنون الذين أنفقوا من غير من ولا أذى، وابتغاء مرضاة الله شبههم الله

(١) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٦٦-٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ٦٦

(٣) البقرة: ٢٦٥

بيستان بريرة أصابها مطر فأثمرت ضعف ما تثمر الأشجار الأخرى، يقول الإمام الطبري: (والرِّبوة من الأرض: ما نشز منها فارتفع عن السيل. وإنما وصفها بذلك جل ثناؤه، لأن ما ارتفع عن المساليل والأودية أغلظ، وجنان ما غلظ من الأرض أحسن وأزكى ثمراً وغرساً وزرعاً، مما رَقَّ منها، وقوله ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ فإنه يعني جل ثناؤه: أصاب الجنة التي بالربوة من الأرض، وابلٌ من المطر، وهو الشديد العظيم القطر منه. وقوله: ﴿فَنَأَتْ أَكْثَلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾، فإنه يعني الجنة: أنها أضعف ثمرها ضعفين حين أصابها الوابل من المطر).^(١)

يقول الشيخ السعدي تكملة لشرح المثل: ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ «فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل طل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها». ^(٢) فهذه حالة المنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل ينمي له ما أنفق أتم تنمية وأكملها والمنمي لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها، ومن خلال هذا المثل الجميل يتفكر المؤمن ويستيقن أن ما تصدق به سينبته الله أضعافاً مضاعفةً، تنمو مع الأيام، فهي في بنك الإله الكريم، وليس في بنوك البشر أهل الشح والبخل.

إعصار أحرق الجنة

يقول تعالى: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ^(٣) هذا مثل ضربه الله للمنفق رياءً، مثل ذلك البستان العظيم المملوء من كل الثمرات، وله أبناء

(١) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٧١ / ٣.

(٢) السعدي عبد الرحمن / مرجع سابق ٢١١ / ١.

(٣) البقرة: ٢٦٦.

أطفال، وقد بلغ من العمر مبلغا لا يستطيع القيام بشيء، فأصاب جنته إعصار فيه نار فاحترقت، فلا يستطيع هو إعادتها كما كانت، ولا يستطيع أبناؤه فعل شيء، وضاع كل شيء، وأصبح لا يملك شيء، كذلك حال المرائي بالصدقات.

يعقب الإمام الطبري على هذا المثل الجميل للمنفق رياءً: (فكذلك المنفق ماله رياء الناس، أطفأ الله نوره، وأذهب بهاء عمله، وأحبط أجره حتى لقيه، وعاد إليه أحوج ما كان إلى عمله، حين لا مُسْتَعْتَبَ له.. ولا إقالة من ذنوبه ولا توبة، واضمحل عمله كما احترقت الجنة التي وصف جل ثناؤه صفتها عند كبر صاحبها وطفولة ذريته أحوج ما كان إليها فبطلت منافعها) ^(١).

يقول سيد قطب في تعليقه على هذه الآية (فمن ذا الذي يود أن تكون له هذه الجنة - أو هذه الحسنة - ثم يرسل عليها المن والأذى يمحقها محقا، كما يمحق الجنة الإعصار فيه نار، ومتى؟ في أشد ساعاته عجزا عن إنقاذها، وحاجة إلى ظلها ونعمائها!

﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۚ﴾ ^(٣٦) من ذا الذي يود هذا؟ ومن ذا الذي يفكر في ذلك المصير ثم لا يتقيه ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ^(٣٦) ^(٢).

إنها آيات وأمثال ربانية مرعبة، تخلع قلوب الصادقين، ليراجعوا صدقاتهم بل وأعمالهم التي ربما أصاب البعض منها ما يبطلها من:

١- الرياء.

٢- المن.

٣- الأذى.

(١) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٣/ ٧٥.

(٢) في ظلال القرآن / مرجع سابق ١/ ٣١٠.

أيها المنفق انتبه أشد الانتباه لكل ما أنفقت وما تنفق وما سوف تنفق أن يتلوث شيء منها بهذه المكروبات القاتلة، وحاسب نفسك أشد الحاسب لتتقnie صدقتك من هذه الآفات، قبل أن تتفاجأ يوم القيامة ببطلانها كلها أو نصفها أو شيئاً منها.

لا تيمموا الخبيث

يقول تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦٧) (١).

جاء في ابن كثير قول ابن عباس: (قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيه وهو خبيثة فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ أي: تقصدوا (الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيهِ) أي: لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون. (٢)

يركز سبحانه في هذه الآيات على أخلاق المنفق وشروط النفقة المقبولة، ومن هذه الأخلاق والشروط:

- ١- الإخلاص.
- ٢- كف الأذى.
- ٣- كف المن.
- ٤- انتقاء الأفضل.

(١) البقرة: ٢٦٧.

(٢) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ص ٣٩٠ - ٣٩٦.

ثم يعقب على ذلك، أن الصدقة الرديئة من مال حرام أو صدقة فاسدة رديئة أنت لا تقبلها، وإن قبلتها ستبين العيوب فيها، فكيف تقبلها الله خالقك ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ (١).

وتأتي هذه الآية لتناسب مع ما يحدث من بعض المسلمين عند تضرر بعض ديار المسلمين من الزلازل وغيرها من الكوارث فيتصدقون بالرديء والقديم والمعيب من ثيابهم و أثاثهم و طعامهم.

ولقد جاء في الطبري قول الثوري: (عن السدي، عن أبي مالك، عن البراء) ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ (٢) يقول: لو كان لرجل على رجل، فأعطاه ذلك لم يأخذه، إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه. (٣)

الشیطان يخوفكم الفقر

يقول تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤) وفي سياق التحدث عن آداب الإنفاق، تأتي هذه الآية لتذكر المسلمين بأمر يغفله الكثيرون منهم، ألا وهو ما يلقيه الشيطان في نفوس البعض عند الإنفاق، يخوفهم من نقص أموالهم وتعرضهم للفقر إذا ما أنفقوا، وإن وراءكم التزامات نحو أطفالكم وأهلكم، إلى آخر هذا النسق من التخليد عن الإنفاق ﴿يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً﴾.

جاء في تفسير الطبري: «عن ابن عباس، قال: اثنان من الله، واثنان من الشيطان: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ يقول: لا تنفق مالك، وأمسكه عليك، فإنك تحتاج إليه،

(١) البقرة: ٢٦٧

(٢) البقرة: ٢٦٧.

(٣) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٨٤/ ٣.

(٤) البقرة: ٢٦٨.

ويأمركم بالفحشاء ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ﴾، على هذه المعاصي ﴿وَفَضْلًا﴾ في الرزق»^(١) فهدف الشيطان إدخال بني آدم النار بحرمانه من الأجر، والله سبحانه يريد إدخال بني آدم الجنة بحثه على فعل الخير.

وعن آية تخويف الشيطان للمسلم عند الانفاق، جاء في الحديث عن ابن مسعود قول النبي ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بَابِنِ آدَمَ وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً: فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإِعَادُ بِالسَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ فإِعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فليعلم أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فليحمدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَى فليتعوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ثُمَّ قَرَأَ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

حديث ابن مسعود يتحدث عن حياة الإنسان بين وسوسة الشيطان وترغيب الرحمن، فعند وقوع المعصية فقد أطاع وصدق المسلم وسوسة الشيطان، ووعوده الكاذبة (لمة الشيطان) وعندما تقع الطاعة فقد أطاع المسلم وعد الله بالجنة والرضوان والمغفرة (لمة الملك) فالمسلم في صراع بين هذين الوعدين، فأما يتغلب بإيمانه على وسوسة الشيطان وتزيينه وأما أن يكون صريعاً مستسلماً لها.

ما هي الحكمة؟

يقول تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٣) وقبل الحديث في تفاصيل الآية لابد من معرفة معنى (الحكمة) والتي من حازها فقد حاز خيراً كثيراً، فقد اختلف العلماء عما تعني

(١) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٨٨/٣.

(٢) الترمذي وصححه الألباني - صحيح الترمذي ٢٩٨٨.

(٣) البقرة: ٢٦٩.

الحكمة، وأورد هذا الاختلاف الإمام القرطبي، وملخصها:

«١- السدي: هي النبوة.

٢- ابن عباس: هي المعرفة بالقرآن.

٣- قتادة: الفقه في القرآن.

٤- مجاهد: الإصابة في القول والفعل.

٥- ابن زيد: الحكمة العقل في الدين.

٦- مالك: المعرفة بدين الله.

٧- ابن القاسم: التفكير في أمر الله.

٨- الربيع بن أنس: الحكمة الخشية.

٩- النخعي: الفهم في القرآن.

١٠- الحسن: الحكمة الورع.»^(١)

بعد استعراض أقوال العلماء عن معنى الحكمة يرجح القرطبي قول مجاهد فيقول: (قلت: وهذه الأقوال كلها ما عدا قول السدي والربيع والحسن قريب بعضها من بعض ؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتيان في قول أو فعل، فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس، فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وكل ما ذكر من التفضيل فهو حكمة. وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فقليل للعلم حكمة ؛ لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع من السفه وهو كل فعل قبيح، وكذا القرآن والعقل والفهم.)^(٢)

وحتى يكتمل المعنى للحكمة لابد أن نتعرف على ما تعنيه الحكمة لغة: يقول الأستاذ زهير شاكر (مفهوم «الحكمة» في المعاجم: حسب (لسان العرب) يقال الحكيم: (الذي

(١) القرطبي محمد / الجامع لأحكام القرآن / مرجع سابق ٣/ ٢١٣-٢١٤.

(٢) المرجع السابق.

يحكم الأشياء ويتقنها، وقيل الحكيم ذو الحكمة، والحكمة: «عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم»، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم^(١).
وإذا جمعنا أقوال المفسرين وأهل اللغة فإنه يتبين لنا إن أهم سمات الحكيم:

- ١- الإتقان في القول والعمل
- ٢- معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم
- ٣- اتخاذ القرار السليم بعد تأني ودراسة
- ٤- الفهم الصحيح المعتدل للدين
- ٥- دراسة جميع الاحتمالات واختيار الأكثر نفعاً والأقل ضرراً
- ٦- اعتماد منهجية (الاستشارة والاستخارة) بعد الدراسة الشخصية
- ٧- الورع وتجنب مخالفة القرار لمراد الكتاب والسنة.

قول السعدي عن الحكمة

وعن آية الحكمة يقول الإمام السعدي: (لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه).

والحكمة هي: العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا

(١) موقع زهير شاكر / فيس بوك / ٢٩ أبريل ٢٠١٣ م.

كَثِيرًا ﴿٣١﴾ ^١لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم. وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي: وضع الأشياء في مواضعها.

وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام. ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم.

﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ^٢ وهم: أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة ^٣.

سيد والحكمة

وعن آية الحكمة يقول سيد قطب: (يعطي عن سعة، ويعلم ما يوسوس في الصدور، وما يهجس في الضمير، والله لا يعطي المال وحده، ولا يعطي المغفرة وحدها. إنما يعطي (الحكمة) وهي توحي القصد والاعتدال، وإدراك العلل والغايات، ووضع الأمور في نصابها في تبصر وروية وإدراك: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ^٤ ^{٣١} أوتي القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود؛ وأوتي إدراك العلل والغايات فلا يضل في تقدير الأمور؛ وأوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال.. وذلك خير كثير متنوع الألوان ^٥).

(١) البقرة: ٢٦٩.

(٢) البقرة: ٢٦٩.

(٣) السعدي عبد الرحمن / تيسير الكريم الرحمن / مرجع سابق ١ / ٢١٤

(٤) البقرة: ٢٦٩.

(٥) سيد قطب / في ظلال القرآن / مرجع سابق ١ / ٣١٢

لا حسد إلا في اثنتين

وجاء في السنة بعض الأحاديث عن الحكمة منها ما رواه البخاري قول النبي ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا.»^(١) وهو نوع من الحسد المحمود، ويسمى (الغبطة) أي يتمنى تلك النعمة أن تكون لديه، دون أن يتمنى زوالها من صاحبها، فالحكمة هنا من هذا النوع من النعم التي أباح الشرع تمنيتها، لِمَا لها من أهمية في حياة الفرد والمجتمع. و من خلال تعرفنا على الحكمة ومعانيها فإننا نرى أن من أبرز أسباب تخلف الأمة بقادتها ومفكرها وأحزابها، وسيطرة الغرب الحاقدها عليها، واستنزاف ثرواتها، وسيطرة عبيدهم من الطغاة عليها، وحرمانها من العودة إلى قيادة العالم، هو قلة الحكمة عند معظم الفاعلين من (قادة وأحزاب ومفكرين) لذلك يستمر التخلف والتراجع، ويزداد الظلم والطغيان، فاللهم اهننا الحكمة وكل أسباب الخروج من هذا النفق المظلم.

الصدقة بين الإظهار والإخفاء

وقوله: ﴿إِنْ بُدُّوا أَلْصَقَتْ فَنِعْمَ هِيَ﴾^(٢) يقول الشوكاني: أي: إن تظهروا الصدقات فنعم شيئاً إظهارها، وإن تخفوها تصيبوا بها مصارفها من الفقراء، فالإخفاء خير لكم. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع لا في صدقة الفرض، فلا فضيلة للإخفاء فيها^(٣)، وقال رسول الله ﷺ: «الجاهرُ بالقرآنِ كالجاهرِ بالصدقةِ، والمسرُّ بالقرآنِ كالْمسرِّ بالصدقةِ»^(٤).

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني، صحيح ابن ماجه ٣٤١١

(٢) البقرة: ٢٧١.

(٣) الشوكاني محمد / فتح القدير / مرجع سابق ٤٩٢ / ١.

(٤) رواه ابو داود، وصححه الأرناؤوط / تخريج سنن أبي داود ١٣٣٣.

قول الله تعالى: ﴿إِنْ بُدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (٢٧١) في هذه الآية بعض الضوابط لفهمها فهماً صحيحاً، وهي:

- ١- إظهار الصدقات مرتبط بالنية، فإن كان قصده الرياء فالإظهار مرفوض.
- ٢- إن كان الإظهار القصد منه الاقتداء فهو حسن، بل هو مطلوب.
- ٣- الإخفاء هو الأفضل عند الله، لأنه أقرب للصدق وأبعد عن الرياء.
- ٤- نشر الفضائل إذا سلم من الرياء أمر يحبه الله، على نقيض إفشاء الرذائل.

الهداية بيد الله

أورد الإمام الطبري قول الربيع: (في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٢٧٢)، قال: كان الرجل من المسلمين إذا كان بينه وبين الرجل من المشركين قرابة وهو محتاج، فلا يتصدق عليه، يقول: ليس من أهل ديني!! فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ (٢٧٢) الآية (٣). ويقول السعدي: «أي إنما عليك أيها الرسول البلاغ وحث الناس على الخير وزجرهم عن الشر، وأما الهداية فييد الله تعالى» (٤). نستطيع ان نستخلص الفوائد التالية من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ (٢٧٢)

- ١- الهداية نوعان، هداية دلالة وهداية توفيق: وهداية الدلالة يشترك فيها الخلق مع الخالق والرسول، وهي دلالة الخلق على طريق الله، تعليمهم وإرشادهم ودعوتهم، وهداية التوفيق التي تختص بالخالق، فهو الذي يغرس الهداية في قلب من يشاء من عباده إذا علم منه محبة الحق والرغبة فيه.

(١) البقرة: ٢٧١.

(٢) البقرة: ٢٧٢.

(٣) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ٩٥/٣.

(٤) السعدي عبد الرحمن / تيسير الكريم / مرجع سابق ٢١٥/١.

- ٢- هداية التوفيق مقتصرة على الخالق، لذلك قال له الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ (٢٧٢) ﴿﴾
- ٣- قد يبذل المرء كل ما لديه من الوسائل لهداية انسان ما ولكن الله لا يشاء هدايته، فلا يستغرب احد من عدم هداية بعض ابناء الانبياء وزوجاتهم ووالديهم، ولا نشك ان هؤلاء الانبياء بذلوا كل ما لديهم ولكن الله لم يشأ.
- ٤- عدم الاغترار بهداية اسرتك، والاستنقاص من الآخرين بسبب ضلال اسرهم فتذكر ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ (٢٧٢) ﴿﴾.
- ٥- الاحسان بالكلمة الطيبة والمساعدة المادية والمعنوية للأقارب من الكفار او الضالين، وان بقوا على كفرهم وضلالهم، فاعل هذه الصدقات والمساعدات تكون سببا في هدايتهم، فالمقاطعة والجفوة للأقارب بسبب ضلالهم ليس منهجا دعويا، ولا يتماشى مع روح الاسلام وسماحته.

المتعصفون

ذكر ابن كثير (وقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ (٢٧٢) ﴿﴾^(١) أي: الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم. وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمَسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرَدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمَسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»^(٢)

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ (٢٧٢) ﴿﴾^(٣) يدعونا للتعرف

(١) البقرة: ٢٧٣.

(٢) رواه البخاري ١٤٧٩.

(٣) البقرة: ٢٧٣.

على المعنى الدقيق للتعفف، وهو كما جاء في معجم المعاني الجامع (تَعَفَّفَ الْعَابِدُ: عَفَّ؛ امتنع عما لا يحل ولا يليق، وتجنب سيئ القول والفعل)^(١) فهو وإن كان محتاجاً فإنه يأنف أن يمد يده للسؤال أو يسأل الناس، بل يفضل أن يطوي جائعاً ولا يسأل الناس، وما أجمل تعريف النبي ﷺ للعفيف (وَلَا يُفْطَنُ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ) أي أن ظاهره لا يبدو عليه الحاجة في ملبسه وهيئته وحاله، بل يظنه البعض أنه من الأغنياء.

العفاف مستوى أخلاقي إيماني رفيع لا يصل إليه إلا القلة من المسلمين، وهي نتاج الايمان والعيش والتطبيق لبعض المعاني الايمانية، والتي من أبرزها القناعة والرضا بما كتب للإنسان، من خلال مجموعة من الآيات. والأحاديث، والتي منها الآية ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾^(٢) ومنها حديث الامام مسلم «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزَقَ كَفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ.»^(٣) وقوله: (كفافاً)، قال المناوي: «أي ما يكف عن الحاجات، ويدفع الضرورات والفاقات، ولا يلحقه بأهل الترهات — ثم يقول: وصاحب هذه الحالة معدود من الفقراء، لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا، بل يجاهد نفسه في الصبر على القدر الزائد على الكفاف، فلم يفته من حال الفقراء إلا السلامة من قهر الرجال، وذل المسألة.»^(٤)

العفيف هو كما وصفه النبي ﷺ «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزَقَ كَفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ.» والكفاف كما سبق شرحه (: ما كفاه في أمر دنياه وكفه عما سواه) فهو لا يريد ما لا يزيد عن حاجته فيطغيه، أو يشغله عن آخرته، وما أمر به من الواجبات، ولا يريد أن ينقص هذا المال فتلجأ الحاجة للغير، فهذا يردده وهذا يعطيه، أو تضيع عليه الحاجة الكثير

(١) موقع معجم المعاني الجامع — تعريف كلمة تعفف.

(٢) البقرة: ٢٧٣.

(٣) رواه الإمام مسلم ١٠٥٤.

(٤) المناوي عبد الرؤوف / فيض القدير / مرجع سابق ٤ / ٥٠٨.

من الأوقات الثمينة، لذلك فهو يكثر من الدعاء «اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ»^(١)

عندما قال العفيف ما أوصاه به نبيه ﷺ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ» فمن الصعب أن يشتريه أحد بزيئة من زخارف الدنيا (المال، النساء، المناصب، الشهرة، والدواب، وما شابهها) فقد عقد صفقة مع الله وعهداً ألا يكون عبداً لأحد سواه (واني على عهدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ)^(٢) فهو من أغنى الأغنياء في الدنيا لأن الله ملاً قلبه رضا (الغنى غنى النفس)^(٣) لذلك هو حقيقة لا يشعر انه بحاجة لأحد سوى خالقه، يا لها من درجة عالية، قل من يصل إليها.

ما هو الربا؟

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(٤) وقبل الأبحار في معاني الآية لابد أن نتعرف على معنى الربا، فما هو الربا؟

«الربا كلمة تعني في (اللغة): النماء، والزيادة في الشيء، وارتفاعه، وفي (الشرع): ما يُزاد على أصل البيع، أو الدين من مال دون حق، أو ما يُزاد بعد مدة معينة من الوقت بلا مقابل»^(٥)

وفي حديثنا عن آية الربا، وتعرفنا على معناه، لابد لنا من معرفة أنواعه: يقول الشيخ بن باز رحمه الله: «وأنه نوعان يرجع إلى نوعين: ربا الفضل، وربا النسيئة، ربا الفضل

(١) رواه الترمذي وحسنه الألباني (صحيح الترمذي ٣٥٦٣).

(٢) جزء من سيد الاستغفار - رواه البخاري ٦٣٠٦.

(٣) رواه البخاري ٦٤٤٦.

(٤) البقرة: ٢٧٥.

(٥) عبدالرحيم عبدالحميد الساعاتي، العلة الاقتصادية لتحريم ربا النسيئة والفضل، صفحة ٤٣-٤٤. بتصرف.

بيع الشيئين من جنس واحد بزيادة في أحدهما يسمى ربا الفضل، جنيه بجنيهين، درهم بدرهمين، صاع رز بصاعين، صاع حنطة بصاعين، هذا يقال له ربا الفضل، ولا يجوز مطلقاً، لا يداً بيد ولا نسيئة» والفرق بين الاثنين كما يبينه بن باز «بيع الربوي بالربوي نسيئة، هذا النسيئة، يبيع الذهب بفضة نسيئة، يبيع تمرًا بشعير نسيئة، يبيع تمرًا بحنطة نسيئة، هذا ربا نسيئة، يعني: عدم التقابض في المجلس» والنسيئة تأخير سداد الدين عن مواعده، فيزيد عليه مقابل تأجيله لموعد لاحق.

(وإذا أعطاه قرضاً ألف ريال بألف وعشرة صار فيه ربا الفضل وربا النسيئة أيضاً، ألف ريال بألف وعشرة ربا الفضل لأنه زاده عشرة وربا النسيئة لأنه لم يقبضه بل مؤجل. وإذا حل الدين وقال: إما أن تربى وإما أن تقضي إما أن تعطيني حقي أو أزيد قال: ما عندي شيء ما أستطيع أن أسلم لك الآن ألف أو ألفين على حسب دينه، ولكن لا مانع أمهلني وزد، فيمهل في الألف إلى ستة أشهر أو إلى سنة مع زيادة خمسين ريال أو مئة ريال أو أكثر أو أقل من أجل إمهاله وكله محرم بالإجماع، ربا النسيئة، وربا الفضل قد روي خلاف فيه عن بعض السلف ولكنه زال، فربا الفضل وربا النسيئة كله محرم بالإجماع)^(١) وعلة تحريم الربا الرئيسة هي (أخذ مال بغير حق أو عوض).

مصير الربويين

يقول الإمام ابن كثير في تفسير الآية: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(٢) «لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصلوات، لذوي الحاجات والقربات، في جميع الأحوال والآفات، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر

(١) موقع الإمام بن باز / تعريف الربا و بيان أنواعه.

(٢) البقرة: ٢٧٥.

عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (٢٧٥) أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخطيط الشيطان له؛ وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقال ابن عباس: أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق (٢).

محق الربا تكثير الصدقات

يقول تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾ (٢٧٦) (٣) يقول ابن كثير: (يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا، أي: يذهب، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يجرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة) أما قوله ﴿وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾ (٢٧٦) (٤).

يقول ابن كثير: «قرئ بضم الياء والتخفيف، من « ربا الشيء يربو وأرباه يربيه أي: كثره ونماه ينميه. » (٤)

عن قوله تعالى: ﴿وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾ (٢٧٦) (٥) بمعنى ينميه ويكثره ويضاعفه في الدنيا مالا عوضاً وسعادةً وهناءً وبركةً في العمر، ومحبةً من الناس، وكذلك الآخرة في بنك رب العالمين يضاعف كل صدقة وإن كانت صغيرة حتى تكون كالجبال، كما جاء فيما رواه البخاري «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ (مهرة) أول ما يولد، حتى تكونَ مثلَ الجبلِ» (٥) «يا الله ما أكرمك.

(١) البقرة: ٢٧٥.

(٢) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ص ٤٠٣.

(٣) البقرة: ٢٧٦.

(٤) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ص ٤٠٦.

(٥) رواه البخاري ١٤١٥ و مسلم ١٠١٤.

المرابي مهما تضاعفت ثروته فإنها إلى زوال وخسارة، لأن الخالق قضى أن يكون مصير الربا (محق) ومهما تضاءلت الصدقة حتى وإن كانت نصف ثمرة (عدل ثمرة) فإن الله قدر أن ينمي هذه الصدقة الصغيرة عنده يوماً بعد يوم، وصاحبها قد نساها ولكن الكريم لا ينسى، بل يستمر في تربيتها لصاحبها حتى ليطير من الفرح عندما يرى جبلاً من الأجر بسبب صدقاته ﴿وَيُرِّي الصَّدَقَاتِ ۖ﴾ (٣٦) يا الله ما كرمك.

يقول سيد قطب في قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ (٣٦) (وصدق وعيد الله ووعدته. فيها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طمأنينة. إن الله يمحق الربا فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء. وقد ترى العين - في ظاهر الأمر - رخاء وإنتاجاً وموارد موفورة، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد. وقد أشرنا من قبل إلى الشقوة النكدة التي ترين على قلوب الناس في الدول الغنية الغزيرة الموارد؛ وإلى القلق النفسي الذي لا يدفعه الثراء بل يزيده. ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم.

﴿وَيُرِّي الصَّدَقَاتِ ۖ﴾ (٣٦) (وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون - الممثلين في الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع - وسادته روح المودة والحب والرضى والسماحة، والتطلع دائماً إلى فضل الله وثوابه، والاطمئنان دائماً إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها. ما من مجتمع قام على هذا الأساس إلا بارك الله لأهله - أفراداً وجماعات - في ما لهم ورزقهم، وفي صحتهم وقوتهم وفي طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم.

والذين لا يرون هذه الحقيقة في واقع البشرية، هم الذين لا يريدون أن يروا، لأن لهم هوى في عدم الرؤية! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل المبثوثة عمداً وقصداً من أصحاب المصلحة في قيام النظام الربوي المقيت) (١).

(١) سيد قطب / في ظلال القرآن / مرجع سابق ١/ ٣٢٨.

حرب الله ورسوله

يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ^ط (٢٧٩) ﴿^(١)﴾ فهو تهديد لمن استمر بالتعامل مع الربا بعد هذه الموعظة الربانية، والزجر القرآني.

يقول الإمام الطبري عن قتادة: «أُوعِدَ الْآكِلَ الرِّبَا بِالْقَتْلِ» و عن ابن عباس: قال: «فاستيقنوا بحرب من الله ورسوله» ^(٢). حيث لا يوجد ذنب هدد الله فاعله بالحرب مثل الربا، فمن له طاقة لحرب الله؟.

الربا من أكبر الجرائم الاجتماعية التي تهلك الشعوب، وتجعل فئة صغيرة تتحكم بالفئة الأكبر، وهو من أشد أنواع الظلم وأكل المال بغير حق، لذلك جاء هذا التهديد بالحرب الإلهية وقد جاءت عدة أحاديث بالتغليظ على أكل الربا، منها ما جاء في ابن ماجه بإسناد صحيح «الربا ثلاثة وسبعون باباً، وأيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإنَّ أربى الربا عرض الرجل المسلم» ^(٣) وجاء في صحيح مسلم عن ابن مسعود: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَشَاهِدَهُ، وَكَاتِبَهُ...» ^(٤)

يعلق سيد قطب على قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ^ط (٢٧٩)﴾ ^(٥) فيقول: (الإيذان بالحرب من الله ورسوله أعم من القتال بالسيف والمدفع من الإمام. فهذه الحرب معلنة - كما قال أصدق القائلين - على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه

(١) البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) الطبري محمد / تفسير الطبري / مرجع سابق ١٠٨/٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٢٢٧٥، وصححه الألباني ص ج ص ٣٥٣٩.

(٤) رواه النسائي ٥١١٩ وصححه الألباني - صحيح النسائي ٥١١٩.

(٥) البقرة: ٢٧٩.

الاقتصادي والاجتماعي. هذه الحرب معلنة في صورتها الشاملة الداهمة الغامرة. وهي حرب على الأعصاب والقلوب. وحرب على البركة والرخاء. وحرب على السعادة والطمأنينة.. حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض. حرب المطاردة والمشاكسة. حرب الغبن والظلم. حرب القلق والخوف.. وأخيرا حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول. الحرب الساحقة الماحقة التي تقوم وتنشأ من جراء النظام الربوي المقيت^(١).

ذووا العسرة

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢) يقول ابن كثير: «يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾^(٣) [أي] لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي». وقد جاء في ابن ماجه قول النبي ﷺ: «من أنظر معسرا كان له بكل يوم صدقة ومن أنظره بعد حلّه كان له مثله في كل يوم صدقة»^(٣) وهذا هو الفارق الرئيس بين النظام الاسلامي والنظام الربوي، وهو أن الإسلامي لا يمكن أن يزيد على أصل الدين، إن ثبت عسر المدين، أما النظام الربوي لا يعبأ أبداً بعسر المدين، ولا بد أن يزيد حتى ربما زاد عن أصل الدين، وفي نظره أن هذه فوائد.

(١) سيد قطب / في ظلال القرآن / مرجع سابق ١ / ٣٣١.

(٢) البقرة: ٢٨٠.

(٣) رواه ابن ماجه و صححه الألباني (صحيح ابن ماجه ١٩٧٧).

الصدقة خير

يقول تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠) لا يكتفي النظام الإسلامي بتحريم الربا على أتباعه، بل يحثهم على تنازلهم عن أصل الدين على المعسر، لتأصيل خلق الرحمة في نفوس المجتمع، بل ويرتب على ذلك الأجر العظيم. يقول ابن كثير: «ثم يندب إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠) أي: وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين.» (٣) وقد روى الإمام مسلم قول النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيهَ اللَّهُ مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلْيَنْفَسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ» (٤).

كتابة الدين

يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَآكْتُبُوهُ﴾ (٥) ﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ (٢٨٢) يقول ابن كثير: «هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ (٢٨٢) (٧) آية الدين هي أطول آية في القرآن، وفيها الحث على كتابة الدين، والحث على كتابته مع الشهود حتى وإن كان صغيراً، حفظاً للحقوق، فلا مجال

(١) البقرة: ٢٨٠.

(٢) البقرة: ٢٨٠.

(٣) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ص ٤٠٩.

(٤) رواه مسلم ١٥٦٣.

(٥) البقرة: ٢٨٢.

(٦) البقرة: ٢٨٢.

(٧) البقرة: ٢٨٢.

للمجاملة في حقوق الآخرين، فقد يكون المتدائنين يثق بعضهم ببعض، ولكن الحق يتجاوزهم إلى الورثة عند موت أحدهم، فإذا لم يدون الدين ضاعت الحقوق، خاصة إذا كان الورثة ممن لا يعلم عن ذلك الدين شيء، لذلك كان القرآن واضحاً حفظاً للحقوق. يقول ابن كثير وقوله: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (٢٨٦) أي: لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي النسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة، في قوله: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ (٢٨٤) أي: هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكرامية الوسوسة السيئة من الإيوان^(٣).

فضل خواتيم البقرة

خواتيم سورة البقرة من الآية ٢٨٥ إلى ٢٨٦ من قوله تعالى ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ (٢٨٥) إلى قوله تعالى ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦) ورد في فضلها بعض الأحاديث، منها ما جاء في ابن حبان بإسناد صحيح «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفَّتَاهُ»^(٥) وجاء في السيوطي بإسناد صحيح عن حذيفة (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ أُعْطِيَتْ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ لَمْ يُعْطَهَا نَبِيٌّ قَبْلِي)^(٦).

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) البقرة: ٢٨٤.

(٣) تفسير ابن كثير / مرجع سابق ص ٤٢٣.

(٤) البقرة: ٢٨٦.

(٥) رواه ابن حبان، وصححه الألباني - صحيح ابن حبان ٢٥٧٥ ومسلم ٨٠٧.

(٦) السيوطي، وصححه الألباني، ص ج ص ٤٢٢٣.

الخاتمة

كنت أقرأ لبعض العارفين والمفسرين والعلماء والمحدثين عن لذة العيش مع القرآن، فلم أكن أستوعب ما يقولون، حتى دخلت هذا العالم الفسيح، عالم القرآن الكريم، أعظم كتاب أنزله الله، ومعجزة الله الخالدة، حيث أيقنت ما قاله أولئك العلماء، وعشت وما زلت أجمل لحظات حياتي مع القرآن، قراءة، وفهماً وتدبراً، فأحسست بتلك اللذة التي كانوا يتحدثون عنها، كم نحن غافلون عن هذه اللذة الإيمانية، ومنشغلون عنها في لذائذ زائلة من زينة الحياة الدنيا، كم من الحقائق الماثلة أمامنا كل يوم، لا نعرف تفسيراً لها، لأننا مبتعدون عن القرآن، كم من الغم والهم والحزن يصيبنا، ونحن مبتعدون عن الدواء الناجح لكل ما نصاب به، كم من الكوارث الاجتماعية والسياسية، والتربوية، والسلوكية تصيب الأمة، والقرآن بين يديها يهديها للحل، ولكنها ترفض الرجوع إليه، وتلجأ لما هو دونه منزله. اللهم أرجع الأمة لكتابك، ولدينك، واجعله هادياً لها في ما هي تتخبط فيه.

فهرس الموضوعات

٥	مقدمة
٧	سورة الفاتحة
٩	التسمية هي اعلان للهوية
١٠	التسمية تجرد
١٠	التسميه توفيق ونجاح
١٠	التسمية تربية للنفس على الربانية
١٠	الحمد لله من أوائل العبادة
١١	الحمد إقرار واعتراف بنعم الله
١١	تمام الاستغفار الاعتراف بالنعم
١١	الحمد يزيد من الرضا والطمأنينة
١١	أول من يستحق الشكر هو الله
١٢	الحمد عمل وليس لفظ فحسب
١٢	الإسلام والإيمان والهداية أجل النعم
١٢	ليست النعم فقط زينة الدنيا
١٣	تلك الدنيا بأسرها
١٣	اسمان مشتقان من الرحمة
١٣	أرحم من الوالدة
١٤	يا صاحب الهم ارفع رأسك
١٤	رحمته سبقت غضبه
١٤	الراحمون يرحمهم الرحمن
١٤	من صور الرحمة
١٥	أولى الناس بالرحمة

١٥	أنزل رحمة واحدة
١٥	يوم الدين من أسماء القيامة
١٦	مالك يوم الدين
١٦	القيامة يوم القصاص
١٦	تساقط موازين الأرض
١٦	سارع بإرجاع الحقوق
١٧	فرصتك الوحيدة
١٧	الدنيا دار سفر
١٧	يوم الانتقام من الجبابرة
١٧	جزاء الظالمين
١٨	الباحثون عن النور
١٨	الحياة الحقيقية
١٨	البحث عن أصحاب الحق
١٩	يوم توزيع الكتب
١٩	تغير ألوان الوجوه
١٩	حقيقة عمر الدنيا
١٩	يا ليتني كنت تراباً
٢٠	أمنية الموت
٢٠	حقيقة نعيم الدنيا
٢٠	حقيقة بلاء الدنيا
٢٠	معنى العبادة
٢١	أقصى الخضوع
٢١	توحيد الخوف
٢١	الخوف الباطل
٢١	الله المعبود بحق
٢٢	التذلل لله عزة

- ٢٢ الاسلام دين الحق فقط
- ٢٢ اسوء صفات البشر
- ٢٣ أنواع العبيد
- ٢٣ معنى الاستعانة
- ٢٣ العون الرباني
- ٢٤ أنواع الاستعانة
- ٢٤ أنواع الاستعانة الدنيوية
- ٢٤ آداب الاستعانة
- ٢٥ استشعر ضعفك
- ٢٥ تربية سيدنا يوسف على الاستعانة
- ٢٥ وحده القادر على رفع البلاء
- ٢٥ مناجاة الاستعانة
- ٢٦ قوة الله وقوى الأرض
- ٢٦ ثناء يعقبه دعاء
- ٢٦ الهداية مبتغى العقلاء
- ٢٦ الوقاية من شياطين الإنس والجن
- ٢٧ أنواع الهداية
- ٢٧ لمن تكون الهداية؟
- ٢٧ طلب الهداية
- ٢٧ هل نحن صادقون؟
- ٢٨ تفكر بمعنى الهداية
- ٢٨ بذل أسباب الهداية
- ٢٨ التماس طريق الهداية
- ٢٨ ما هو الصراط المستقيم؟
- ٢٩ الطبري يشرح هداية الصراط
- ٢٩ أنهما صراطان

٣٠	المغضوب عليهم والضالين ..
٣١	سورة البقرة ..
٣٣	علمتني البقرة ..
٣٣	القرآن المعجزة الخالدة ..
٣٣	القرآن تكفل الله بحفظه ..
٣٣	القرآن الكتاب الهادي ..
٣٤	معنى التقوى ..
٣٤	تعريف الإمام علي ..
٣٤	صفات المتقين ..
٣٥	الإيمان بالغيب ..
٣٥	أهمية الإيمان بالغيب ..
٣٥	صفة المتقين الثانية ..
٣٦	يقيمون الصلاة ..
٣٦	الفرق بين الأداء والإقامة ..
٣٦	صفة المتقين الثالثة ..
٣٧	صفة الإنفاق ..
٣٧	الرزق كله من الله ..
٣٧	الإيمان بالرسول ..
٣٨	الإيمان باليوم الآخر ..
٣٨	اليقين نتيجة التقوى ..
٣٨	لا تنفعهم الموعظة ..
٣٩	سبب عدم الهداية ..
٣٩	معنى الختم ..
٣٩	من علامات الختم ..
٤٠	أخطر فئة في المجتمع ..
٤٠	أنواع النفاق ..

- ٤٠ وسيلة الخداع
- ٤١ انعدام الإحساس
- ٤١ لا يشعرون
- ٤١ المنافقون الجدد
- ٤٢ الهدى والضلال
- ٤٢ موقدوا النار
- ٤٢ هذا حال المنافق
- ٤٣ طريق الضلال
- ٤٣ عقوبة إيقاف الجوارح
- ٤٣ الرافضون للحق
- ٤٤ تنبيه الرب لهم
- ٤٤ الله المحيط
- ٤٤ موافقهم بحسب مصالحهم
- ٤٥ عبيد المصالح
- ٤٥ يعبدون الله على حرف
- ٤٥ يشبهون بالمنافقين
- ٤٦ البرجماتيون
- ٤٦ وقودها الناس والحجارة
- ٤٦ أجساد تتحول إلى وقود
- ٤٧ تشابه بالأسماء فقط
- ٤٧ ثمار الدنيا و ثمار الآخرة
- ٤٧ الخلود في الآخرة
- ٤٨ مثال البعوضة
- ٤٨ جهل اليهود
- ٤٨ الإنسان بمخبره لا بمظهره
- ٤٨ حقائق عن البعوضة

- ٥٠ من هم الفاسقون؟
- ٥٠ من هم الخاسرون؟
- ٥٠ بشارتان للمؤمنين
- ٥١ تفسير البشارتين
- ٥١ بيع الآخرة
- ٥١ كتمان الحق
- ٥٢ مخالفة القول للعمل
- ٥٢ تطبيق ما ندعو له
- ٥٢ الاستعانة بالصبر والصلاة
- ٥٣ قدوات سيئة
- ٥٣ انشغالات تنسيهم الأولويات
- ٥٣ من أعظم العبادات
- ٥٤ الصلاة والخشوع
- ٥٤ الخشوع والراحة
- ٥٤ الذلة والمسكنة
- ٥٥ جبل الله و جبل الناس
- ٥٥ سنة الله في الذلة والمسكنة
- ٥٥ عقوبات بني إسرائيل
- ٥٦ حقيقة المسخ
- ٥٦ قساوة القلوب
- ٥٦ قلوب أقسى من الحديد
- ٥٧ ما هي قسوة القلب؟
- ٥٧ الغفلة عن ذكر الله
- ٥٧ كثرة المعاصي
- ٥٧ التفریط في الفرائض
- ٥٨ الانغماس في الدنيا

- ٥٨ كثرة الاحتكاك بأهل الغفلة
- ٥٨ عدم الرحمة
- ٥٨ هجر القرآن
- ٥٩ الكسل والفتور عن الطاعات
- ٥٩ كثرة الجدال والمراء
- ٥٩ كثرة الضحك
- ٦٠ أحرص الناس على الحياة
- ٦٠ السحرة لا يضررون
- ٦٠ لا ينفع و لا يضر إلا الله
- ٦١ ما بقي من السحر
- ٦١ هل الساحر كافر؟
- ٦١ حكم من يلجأ للسحرة
- ٦٢ أظلم الناس
- ٦٢ طغاة يمنعون المساجد
- ٦٣ أنواع منع المساجد
- ٦٣ جريمة منع المساجد
- ٦٤ استحالة رضى اليهود والنصارى عنا
- ٦٤ لا يرضون عنا أبداً
- ٦٥ حرب مستمرة
- ٦٥ سبب تخلي الله عن نصرتنا
- ٦٦ أهواء اليهود والنصارى
- ٦٦ من قواعد النصر
- ٦٧ قاعدة لا تتغير في النصر
- ٦٧ اعتقاد اليهود أنهم الأفضل
- ٦٧ شعب الله المختار
- ٦٨ سبب تبرير السيطرة على العالم

- ٦٨ اليهود تجار الحرب
- ٦٩ حرمان الإمامة للظالم
- ٦٩ إعادة بناء الكعبة
- ٧٠ وصية يعقوب لابنه
- ٧١ نسيان الوصية
- ٧١ هم الوالد الصالح
- ٧١ الإيمان شرط الهداية
- ٧٢ أسرار الكفاية الإلهية
- ٧٣ فوائد من ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾
- ٧٤ من صور الكفاية الربانية
- ٧٤ صبغة الله
- ٧٥ الصبغة أثر الإيمان
- ٧٥ أمة الوسط
- ٧٦ ما هي الوسطية؟
- ٧٦ جزاء الوسطية
- ٧٦ ما هي الشهادة على الناس؟
- ٧٧ الشهود يوم القيامة
- ٧٧ ما هي شهادة الرسول ﷺ؟
- ٧٨ التسابق للخير
- ٧٨ فضل المسارعة بالصلاة
- ٧٩ بين الذكر والشكر
- ٨٠ إنه لشرف عظيم
- ٨٠ أنواع الذكر
- ٨١ أنواع الصبر
- ٨١ الحياة الأعظم
- ٨٢ حياة الشهداء

- ٨٢ الفرق بين الشهيد وغيره
- ٨٣ الشهداء أذكى الأرواح
- ٨٣ ما هو البلاء؟
- ٨٤ بشارة الصابرين
- ٨٥ مستحقوا البشارة الربانية
- ٨٦ الصابرون عند المصائب
- ٨٦ المصابون نوعان
- ٨٧ معنى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾
- ٨٧ عطايا الرحمن للصابرين
- ٨٨ ماذا أعد الله للكافر؟
- ٨٨ ما هو الكفر؟
- ٨٩ الجهل من علامات القيامة
- ٨٩ أدلة دخول الكافر النار
- ٩٠ براءة التابعين للمتبعين
- ٩١ رد فعل التابعين
- ٩٢ خطوات الشيطان
- ٩٤ ينطق بما لا يسمع
- ٩٤ سبب رفضهم للإسلام
- ٩٥ آتى المال على حبه
- ٩٦ ما هو البر؟
- ٩٧ تصحيح مفهوم البر
- ٩٧ أنواع الصبر الثلاثة
- ٩٨ القصاص حياة
- ٩٩ فإني قريب
- ٩٩ التأخر باستجابة الدعاء
- ١٠٠ من صور استجابة الدعاء

- لباس لكم ولباس لهن ١٠٠
- الكاذب المحتال ١٠١
- ما هي الفتنة؟ ١٠١
- الحرمان قصاص ١٠٢
- معية المتقين ١٠٢
- إلقاء النفس بالتهلكة ١٠٣
- ما هي التهلكة بعدم الإنفاق؟ ١٠٥
- ما هو الإحسان؟ ١٠٥
- أنواع الإحسان ١٠٦
- حقيقة التوكل ١٠٦
- خير الزاد ١٠٧
- ذكر الله عمل ١٠٨
- الذكر عند المشعر الحرام ١٠٨
- لا تنسوا الدعاء للآخرة ١٠٩
- قلوبهم تخالف ألسنتهم ١١٠
- من أسوء الأصناف البشرية ١١١
- أخطر ما فيه من الصفات ١١٢
- (اتق الله) يكرهها الطغاة ١١٣
- أهمية دراسة الشبهات ١١٣
- مقومات نجاح الدعاة ١١٣
- السعي للمزيد من اليقين ١١٤
- التجارة مع الله ١١٤
- الأجر مقيد الشرطين ١١٦
- هديتان لمن أوفى بالشرطين ١١٧
- لا تبطلوا صدقاتكم ١١٨
- مثل المنافقين الصادقين ١١٩

١٢٠	إعصار أحرق الجنة ..
١٢٢	لا تيمموا الخبيث ..
١٢٣	الشیطان يخوفكم الفقر ..
١٢٤	ما هي الحكمة؟ ..
١٢٦	قول السعدي عن الحكمة ..
١٢٧	سيد و الحكمة ..
١٢٨	لا حسد إلا في اثنتين ..
١٢٨	الصدقة بين الإظهار والإخفاء ..
١٢٩	الهداية بيد الله ..
١٣٠	المتعففون ..
١٣٢	ما هو الربا؟ ..
١٣٣	مصير الربويين ..
١٣٤	محق الربا تكثير الصدقات ..
١٣٦	حرب الله و رسوله ..
١٣٧	ذووا العسرة ..
١٣٨	الصدقة خير ..
١٣٨	كتابة الدين ..
١٣٩	فضل خواتيم البقرة ..
١٤١	الخاتمة ..
١٤٣	فهرس الموضوعات ..